

لقاءات «تيمورلنك» ومجاداته

مع العلماء في بلاد الشام

المقدمة :

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد الأوّلين
والآخريّن ، نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَن سار
على درّبه واهتدى بهديه إلى يوم الدين ..

شهدت بلاد الشام في مستهلّ القرن التاسع الهجري هجمة
عسكرية شرسة ، قادها الزعيم المغولي «تيمورلنك» ؛ أتت على عدد
من مدنها ، ودمّرت كثيراً من معالمها ، واستُشهد خلالها عدد كبير
من أهلها ، وكانت هذه الهجمة العنيفة حلقة في سلسلة من
الغزوات التي قام بها «تيمور» في مناطق غرب آسيا ، من أجل مدّ
نفوذه ، وتوسيع رقعة إمبراطوريته .

كان «تيمورلنك» يقود حملاته بنفسه ، فيستولي على المدن
واحدة بعد أخرى ، يدخل المدينة فيبقى فيها أياماً ، ثمّ يشدّ الرّحال
عنها ، ويسير بجحافلِه إلى غيرها ، وكانت له في أثناء غزواته
مواقف عجيبة وهوايات غريبة ، ومنها أنّه كان يحرص قبيل هجومه
على بعض المدن ، أو خلال احتلاله لها ، على لقاء بعض علمائها ،

الدكتور :

محمد بن

سليمان

الراجحي*

* بكالوريوس في
التاريخ من كلية
العلوم العربية
والاجتماعية
بالقصصيم -
جامعة الإمام
محمد بن سعود
الإسلامية. ١٤٠٤هـ.
- ماجستير في
التخصص نفسه
من الكلية والجامعة
بالياباض. ١٤٠٨هـ.
- دكتوراة في
التخصص نفسه
والكلية والجامعة
نفسها. ١٤١٤هـ.
- يعمل الآن عضو
هيئة تدريس في
كلية اللغة العربية
والدراسات
الإسلامية -
جامعة القصيم.

لا ليفيد منهم ، وإنما ليدخل معهم في مناقشات ومجادلات طويلة ، حول مسائل علمية لا يفقه فيها شيئاً ..

دخل مدينة «حلب» في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ، فاستدعى ثلّة من علمائها ، وطفق يجادلهم في مسائل وقضايا لم يكن معظمها ذا علاقة بالظروف السائدة في بلاد الشام حينذاك ، ثمّ زحف إلى مدينة «دمشق» ، وفي أثناء حصاره لها التّقى بعدد من علمائها ، خرجوا إليه لمفاوضته في الصلح ، فتظاهر أمامهم بحسن النوايا ، وأظهر في البداية نوعاً من التقدير لهم ، وزعم أنه سيعود أدراجه ، ولكنه ما لبث أن أساء التعامل معهم ، وأغلظ لهم في القول .

وفي «دمشق» جرى أهمّ لقاء بين «تيمورلنك» والعلماء في بلاد الشام في تلك الفترة ، ألا وهو لقاءه بالعلامة والمؤرّخ الكبير " عبد الرحمن بن خلدون " ، ولم يكن «ابن خلدون» يعيش في البلاد الشامية ، بل كان يستوطن مصر حينذاك ، ولكنه قدم إلى مدينة «دمشق» في ركاب السلطان المملوكي " الناصر فرج بن برقوق " ، وحينما عاد السلطان إلى مصر ، بقي «ابن خلدون» في «دمشق» أياماً عدّة ، أتيح له في أنثائها أن يلتقي بتيمور أكثر من مرّة .

وهذا البحث هو دراسة تاريخية لتلك اللقاءات الغريبة ؛ حاولتُ من خلالها استقصاء أبعادها ، واستجلاء ما تخلّلتها من مجادلات وحوارات .. وقد قسمت هذا الموضوع إلى عناصر عدّة ، مهّدتُ لها بالتعريف بشخصيّة «تيمورلنك» - باختصار - ثمّ تحدّثتُ عن لقاءاته بعلماء «حلب» ومجاداته معهم ، ومن ثمّ سلّطتُ الضوء على ما كان من لقاءات ونقاشات بين «تيمور» وعلماء «دمشق» ، وتناولتُ بعد ذلك بالتفصيل لقاءاته بالعلامة «ابن خلدون» ..

ونظراً لما كان للقاءات «تيمورلنك» بابن خلدون من أهميّة بيّنة ، فقد حرصتُ

على رصد أصداء تلك اللقاءات عند المؤرخين ، وأخيراً حاولت دراسة أهداف «تيمور» من وراء لقاءاته بالعلماء ..

وفي الخاتمة استعرضت أهم النتائج التي خرجتُ بها من خلال دراستي لهذا الموضوع ..

تيمورلنك :

هو "تيمورلنك بن ترغاي بن أبغاي" ، قائد وزعيم مشهور . ينتمي - وفقاً لما تذكره بعض الروايات - إلى أصول مغولية .. بينما تقول روايات أخرى إنّه ينحدر من أصل تركي ، وأنّ أمّه من أصل مغولي . ظهر على مسرح الأحداث في بلاد «ما وراء النهر» في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي - واستطاع بعد مغامرات جريئة وحوادث عاصفة أن يُسيطر على مقاليد الأمور فيها ، متّخذاً من مدينة «سمرقند» حاضرة له^(١) .

ثمّ طَفِقَ في توسيع دائرة نفوذه في مناطق وسط آسيا وغربيّها ، فقام بحملات عسكرية واسعة النطاق ، واستولى على عدد من الأقاليم ، ومنها خُراسان ، وجرجان ، وطبرستان ، وسجستان ، وغزا بلاد فارس وأذربيجان وجنوب القوقاز والعراق ، ودمّر كثيراً من المدن في هذه الأقاليم ، وقتل آلافاً من سكّانها . ومن ثمّ عاد نحو الشرق فهاجم بلاد الهند ، ولم يلبث أن سار من جديد صوب المناطق

(١) عن أصل «تيمورلنك» ، وبداية ظهوره على مسرح الأحداث في بلاد «ما وراء النهر» ، انظر : (ابن عريشاه : عجائب المقدور في نواب تيمور : تحقيق أحمد فايز الحمصي - ط ١ - ٠١ - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣٩ وما بعدها . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - بيروت : دار الأفاق الجديدة ، ج ٧ ، ص ٦٢-٦٣ . أكرم حسن العلي : تيمورلنك وحكايته مع دمشق - ط ٤ - ٠ - دمشق : دار المأمون للتراث ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ١٩ - ٢٨) .

الغربية من آسيا ، فغزا العراق مرّةً أخرى واستولى على مدينة «بغداد» ، كما غزا الجزيرة الفراتية ، وبسط نفوذه عليها ، واتّجه بُعيد ذلك إلى بلاد الشام ، فاحتلّ عدداً من مدنها ، ومنها «حلب» و«حماة» و«دمشق» ، وذلك في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م^(١) ، ثمّ زحف بجيوشه نحو منطقة آسيا الصغرى ، وهناك دارت بينه وبين السلطان العثماني «بايزيد الأوّل»^(٢) معركة حاسمة ، هُزم فيها «بايزيد» هزيمة منكراً ، ووقع أسيراً في يد «تيمورلنك» .

وعاد «تيمورلنك» عَقِبَ هذه الحملات العنيفة إلى مدينة «سمرقند» - حاضرة بلاده - بعد أن نجح في تأسيس إمبراطورية واسعة الأرجاء ، شملت مناطق شاسعة من قارة آسيا ، ودخل في علاقات وصراعات مع كثير من الدول والقوى المعاصرة له . وظلّ حتّى أواخر أيامه متعطّشاً للغزو والحروب ، فقد سار في سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م على رأس جيش لغزو بلاد الصين ، ولكنّه مالبث أن مات وهو في الطريق إليها^(٣) .

(١) عن حملات «تيمورلنك» العسكرية وحروبه ، انظر : ابن عريشاه : المصدر السابق ، ص ٦٥ وما بعدها . الغياثي : تاريخه ؛ تحقيق طارق نافع الحمداني - بغداد ، ١٩٧٥م ، ص ١٧٦ وما بعدها . ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦٣ - ٦٥ .

(٢) هو «بايزيد الأوّل بن مراد الأوّل بن أورخان» رابع سلاطين الدولة العثمانية . وُلِدَ سنة ٧٦١هـ / ١٣٦٠م ، وتولّى السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م ، وتوفّي في أسر «تيمورلنك» سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م . لمزيد من المعلومات عنه انظر : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ؛ تحقيق إحسان حقّي - ط ٢ - بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ١٣٧ - ١٤٦ .

(٣) لمزيد من المعلومات عن «تيمورلنك» ، انظر : ابن الفرات : تاريخه ؛ تحقيق د . قسطنطين زريق - بيروت ، ١٩٣٦م ، ج ٩ ، ص ٣٤٣ وما بعدها ؛ نظام الدين الشامي : ظفر نامه - بيروت ، ١٩٣٧م ، ج ١ ، ص ٣٤ وما بعدها . ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمُر بأبناء العمر في التاريخ - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ج ٥ ، ص ٢٣١ - ٢٣٦ ؛ ابن عريشاه : عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٩٣ وما بعدها . ابن تغري بردي : المنهل

وقد أطنب المؤرخون في الحديث عن «تيمورلنك» وعن حروبه وغزواته . وأسهبوا في الحديث عن شخصيته المثيرة للجدل ، وعن صفاته المتناقضة . يقول أحد معاصريه وهو العلامة «ابن حجر العسقلاني» في وصفه : «وكان شيخاً طوالاً مهولاً حسن الوجه ، بطلاً شجاعاً جبّاراً غشوماً ظلوماً سفّاكاً للدماء وكان أعرج ، شلّت رجله في أوائل أمره ، جهير الصوت ، يسلك الجدّ مع القريب والبعيد ، ولا يحبّ المزاح ، ويحبّ الشطرنج ، وله فيها يدٌ طولى يُقرب العلماء والصلحاء والشجعان والأشراف ، ويُنزلهم منازلهم ، ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه ، فكانت هيبتة لا تُداني بهذا السبب وكان له فكرٌ صائب ومكايد في الحرب عجيبة ، وفراسة قلّ أن تُخطئ ..»^(١) .

ويصفه "ابن عربشاه" وصفاً عجيباً ، فيقول : «وكان تيمور طويل النجاد ، رفيع العماد ، ذا قامة شاهقة ، كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوة والبأس ، عجيب الكون ، أبيض اللون، مُشرباً بحمرة ، غير مشوب

الصافي والمستوفي بعد الوافي : تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٤، ص١٠٣ - ١٣٨ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٠ - ط١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ج١٢ ، ص٢٠١ - ٢١١ . السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٠ - ط١ - بيروت : دار الجيل ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ج٣ ، ص٤٦ - ٥٠ . الفياثي : تاريخه ، ص١٠٣ وما بعدها ، ص١٦٩ وما بعدها . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٧ ، ص٦٢ - ٦٧) . ومن المراجع الحديثة عن «تيمورلنك» انظر أيضاً : عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية : ترجمه من الفارسية إلى العربية : د . محمد علاء الدين منصور ٠ - القاهرة : دار الثقافة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م ، ص٥٩٠ وما بعدها . محمد أسد الله صفا . تيمورلنك ٠ - ط١ - بيروت : دار النفائس ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص٤٣ وما بعدها . دائرة المعارف الإسلامية ٠ - بيروت : دار المعرفة ، ج٦ ، مادة «تيمورلنك» ، ص١٥٩ - ١٦٤ . أكرم حسن العلي . تيمورلنك وحكايته مع دمشق ، ص١٥ - ٣٠ :

Rene Grousset : The Empire of The Steppes , P. 408-453 .

(١) إنباء الغُمر بأبناء العمر ، ج٥ ، ص٢٣٤ - ٢٣٥ .

بُسْمَرَة ، فخيم الأطراف ، عريض الأكتاف ، غليظ الأصابع ، مستكمل البنية ، مسترسل اللحية ، أشلّ ، أعرج اليمناوين ، عيناه كشمعتين غير زهراوين ، جهير الصوت ، لا يهاب الموت ، قد ناهز الثمانين ، وهو مع ذلك بجأشٍ مكين ، وبدن مستمسكٍ متين ، صلباً شهماً ، كأنّه صخرة صمّاء ، لا يحبّ المزاح والكذب ، ولا يستميله اللهو واللعب ..»^(١) .

لقاءات «تيمورلنك» بعلماء «حلب» :

في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م زحف «تيمورلنك» بجيوشه الجرّارة نحو بلاد الشام ، وكانت أولى المدن الرئيسية التي تعرّضت لهجومه الشرس في تلك البلاد مدينة "حلب" ، فقد بلغها في التاسع من ربيع الأوّل من تلك السنة ، وجثم بجنوده حولها ، وفي اليوم الحادي عشر منه دخلها عنوةً ، وبسط سيطرته عليها ، بعد ما ألحق بأهلها هزيمة قاسية ، واستشهد عدد كبير من سكّانها ، وأسر آخرون ، وعاث جنوده فيها نهباً وتخريباً^(٢) .

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) عن هجوم «تيمورلنك» على مدينة «حلب» انظر : ابن الشحنة . روض المناظر في علم الأوائل والأواخر ؛ تحقيق سيّد محمد مهنّي - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ٢٩٨ - ٣٠١ . المقرئزي . السلوك لمعرفة دول الملوك - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، ج ٦ ، ص ٤١ - ٤٢ . ابن قاضي شهبه . تاريخه : تحقيق عدنان درويش - دمشق : المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٩٧م ، ج ٤ ، ص ١٥١ . ابن حجر العسقلاني . إنباء الغمّر بأبناء الغمّر ، ج ٤ ، ص ١٩٥ - ١٩٧ . ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٧٨ - ١٨٠ . الصيرفي . نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ؛ تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ج ٢ ، ص ٧٤ - ٧٥ . ابن إياس . بدائع الزهور في وقائع الدهور ؛ تحقيق محمد مصطفى - ط ٢ - القاهرة ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢م ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٥٩٦ - ٥٩٩ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

وبينما كان «تيمور» مهيمناً على مدينة «حلب»، وتحديداً في الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م، طلب مقابلة علمائها وقضااتها، فساروا إليه ، وكان في مقدمتهم العلامة «أبو الوليد بن الشحنة الحلبي»^(١) ، والإمام «شرف الدين الأنصاري الشافعي»^(٢) ، والقاضي «عَلَم الدين القفصي»^(٣) . ومع أن المصادر التاريخية لم تذكر من علماء «حلب» الذين ساروا لمقابلة «تيمورلنك» سوى هؤلاء الثلاثة؛ إلا أنه يُستشف من بعض المواقف التي جرت أثناء المجادلات بين الطرفين أن ثمة علماء آخرين كانوا بصحبته أيضاً . ولعل المصادر لم تذكر أسماءهم ؛ لأنهم لم يكونوا من العلماء البارزين، أو أنهم لحقوا بهؤلاء الثلاثة بعد مسيرهم إلى «تيمور» .

(١) هو : أبو الوليد محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة الحلبي . مؤرخٌ فقيهٌ . عالمٌ بالتفسير والأصول والنحو والأدب . من كبار علماء «حلب» في ذلك العصر . توفي سنة ٨١٥هـ . انظر ترجمته في . المقرئزي . درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة : تحقيق محمود الجليلي ، ٠ - ط ١ - بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م ، ج ٢ ، ص ١١٠ - ١١١ . ابن حجر العسقلاني . ذيل الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة : تحقيق أحمد فريد المزيدي ، ٠ - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ١٦٢ - ١٦٣ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٣ - ٦ .

(٢) هو : شرف الدين موسى بن محمد بن محمد الأنصاري الشافعي الحلبي . فقيهٌ محدثٌ . دُرّس وأفتى ، وتولّى الخطابة بجامع «حلب» ، كما تولّى القضاء أكثر من مرة ، وكان فاضلاً ديناً خيراً . توفي في شهر رمضان سنة ٨٠٣هـ . انظر ترجمته في . ابن قاضي شعبة . تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ . ابن حجر . ذيل الدرر الكامنة ، ص ٦٨ . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٣) هو : عَلَم الدين محمد بن ناصر الدين القفصي . من علماء الشام وقضااتها . تولّى القضاء في «حلب» و«دمشق» و«حماة» مرّات عدّة ، وتوفي سنة ٨٠٥هـ . انظر ترجمته في . السخاوي . المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٣ . ابن العماد الحنبلي . المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٥٣ .

حضر العلماء إلى مجلس «تيمورلنك» ، فأوقفهم ساعة من الزمن ، ثم أمرهم بالجلوس^(١) ، وكأنّه يريد أن يُذلّهم أو يحطّ من قدرهم ، أو أنّه يُريد أن يظهر عدم الاكتراث بهم . ثمّ طلب من كان معه من أهل العلم ، وكان كبيرهم يدعى «عبد الجبار بن نعمان الدين»^(٢) ، وهو عالم «تيمور» وترجمانه ، فلمّا حضر قال له : «قل لهم (يعني علماء حلب) إنّي سائلكم عن مسألة سألتُ عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة ، وسائر البلاد التي فتحتها ، ولم يُفصحوا الجواب ، فلا تكونوا مثلهم ، ولا يُجاوبني إلّا أعلمكم وأفضلكم ، وليعرف ما يتكلّم ، فإنّني خالطتُ العلماء ولي بهم اختصاص وألفة ، ولي في العلم طلبٌ قديم»^(٣) .

ويبدو أنّ «تيمورلنك» كان يسعى من خلال كلامه إلى إثارة الفزع في نفوس علماء " حلب " ، ومحاولة التعنّت في المناظرة والجدال معهم ، وهو منهجٌ اعتاد ممارسته ليس مع العلماء فحسب ، بل حتّى مع الساسة وحكّام البلدان . ولم يكن من الصعب على علماء «حلب» أن يُدركوا ذلك سريعاً ، سيّما وأنّهم كانوا على علم بطريقته ، ودراية بمنهجه وأسلوبه في التعامل مع العلماء ، فقد كانت تتراعى إلى أسماعهم أخبار «تيمورلنك» ، وما كان ينتهجه من طرائق مستهجنة في التعامل مع أهل

(١) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٢٩٩ . المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ٢ ، ص ١١١ . ابن عريشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٤ .

(٢) هو : عبد الجبار بن نعمان الدين الحنفي . وذكره «السخاوي» باسم عبد الجبار بن عبد الله الخوارزمي الحنفي . عالم «تيمورلنك» وإمامه ، ومن أصحاب المنزلة العالية عنده . كان بارعاً في عدد من العلوم ، وكان والده - كما يقول «ابن الشحنة» - من العلماء المشهورين بسمرقند . توفي سنة ٨٠٥ هـ . انظر : ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٢٩٩ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٣٥ . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٥٠ .

(٣) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٢٩٩ . المقرئزي . المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١١ . ابن عريشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

البلدان التي سيطر عليها. وقد أشار «ابن الشحنة» إلى ذلك بقوله: «وكان يبلغنا عنه أنه يتعنّت في الأسئلة على العلماء، ويجعل ذلك سبباً في قتلهم أو تعذيبهم»^(١).

وقبل أن يطرح «تيمورلنك» سؤاله على علماء «حلب»، بادر القاضي «شرف الدين الأنصاري» قائلاً: هذا (يعني ابن الشحنة) شيخنا، ومدرّس هذه البلاد ومفتيها، سلوه وبالله المستعان^(٢). فقال «عبد الجبار» - عالم تيمور - : «سلطاننا يقول: إنّه بالأمس قُتل منّا ومنكم، فمن الشهيد قتلنا أم قتلکم»^(٣) ؟.

وكان «تيمورلنك» يُشير بذلك إلى الذين قُتلوا في أثناء هجومه على مدينة «حلب»، والذين كان جلّهم من أهل البلدة، وليس من جنوده.. وكان سؤاله محرّجاً لابن الشحنة وصاحبيه إلى حدّ كبير، فقد وجّم الجميع، وقالوا في أنفسهم: «هذا الذي بلغنا عنه من التعنّت»^(٤).

ويُتابع العلامة «ابن الشحنة» وصف ما جرى في مجلس «تيمور» فيقول: «وسكت القوم، ففتح الله عليّ بجواب سريع بديع، وقلتُ: هذا سؤال سئل عنه سيّدنا رسول الله ﷺ، وأجاب عنه، وأنا مجيبٌ بما أجاب به رسول الله ﷺ»^(٥).

ودُهِش الحاضرون من قوله ذلك، وعجبوا أيّما عجب، وبخاصّة القاضي «شرف الدين الأنصاري»، فقد كان عالماً بالحديث النبوي الشريف، ولذا ظنّ أنّ

(١) ابن الشحنة. روض المناظر، ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٩. المقرئزي. درر العقود الفريدة، ج ٣، ص ١١١. ابن عربشا. عجائب المقدور، ص ٢١٤.

(٣) ابن الشحنة. المصدر السابق، ص ٢٩٩. المقرئزي. المصدر السابق، ج ٣، ص ١١١. ابن عربشاه. المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٤) ابن الشحنة. المصدر السابق، ص ٢٩٩. ابن عربشاه. المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٥) ابن الشحنة. المصدر السابق، ص ٢٩٩.

«ابن الشحنة» لا يعني ما يقول ، وقد أبان عن ظنّه ذلك بعد ما انفضّ المجلس ، وخرجوا من عند «تيمور» ، حيث قال لابن الشحنة : «لما قلتَ هذا سؤال سئل عنه رسول الله ﷺ ، وأجاب ، قلتُ : هذا عالماً قد اختلّ عقله ، وهو معذور ، فإنّ هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام»^(١) .

وعجب «عبد الجبار» - عالم «تيمور» - هو الآخر من هذا الردّ ، وبادر بسؤال «ابن الشحنة» متهمّاً فيه ، وساخرّاً من رده ، قائلاً : «كيف سئل رسول الله ﷺ عن ذلك ، وكيف أجاب ؟ ، وكان «تيمورلنك» قد ألقى حينذاك بسمعه وبصره إلى «ابن الشحنة» لسمع جوابه ، فقال : «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله إنّ الرجل يُقاتل حميّةً ، ويُقاتل شجاعاً ، ويُقاتل ليعرف مكانه ، ويُقاتل للمغنم ، فأينما في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٢) ، ومَنْ قاتل منّا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد»^(٣) .

وأعجب «تيمور» وعالمه «عبد الجبار» بجواب «ابن الشحنة» وسرعة بديهته ، وساد اللقاء بين الطرفين جوٌّ من الارتياح ، وطفق «تيمور» يتبجّع بحروبه وغزواته ، وبما استولى عليه من البلدان ، ويُعدّد سائر ممالك العجم والعراق والهند وغيرها ، وظنّ «ابن الشحنة» وصاحبه أنّ ثمة فرصة لاحت في الأفق لإقناعه بوضع حدٍّ لآثار ذلك الاجتياح الذي قام به في بلاد الشام ، فطلبوا إليه أن يعفو عن سكّان «حلب» ، حيث قال له «ابن الشحنة» : «اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة»^(٤) .

(١) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . ابن عريشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٤ - ٤١٥ .

(٢) انظر : صحيح البخاري - بيروت : عالم الكتب ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٣) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

(٤) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠٠ . المقرئزي . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢ . ابن

عريشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

وتظاهر «تيمورلنك» بحسن النوايا أمام علماء حلب ، وزعم أنه لم يكن - حينما اجتاحت جيوشه مدينتهم - يريد أن يحدث لسكانها ما حدث ، من استشهاد عدد كبير منهم على يد جنوده ، وأن ما حدث لهم إنما كان نتيجة ازدحامهم وتدافعهم عند أبواب المدينة ، واختتم وعوده - التي لم تكن إلا سراباً - بأن أقسم ألا يؤذي أحداً من أهل البلد أو يمسّه بسوء ، وأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم^(١) .

وقد ساق بعض المؤرخين روايات تؤيد ما ذكره «تيمورلنك» من أن بعض سكان «حلب» إنما استشهدوا بسبب الازدحام ، حيث تذكر هذه الروايات أن جند «حلب» لما برزوا للقتال خارج المدينة ، وتعرضوا للهزيمة ، تراجعوا فداسوا من كان في طريقهم من المشاة^(٢) . وتقول روايات أخرى إن الناس لما ولّوا منهزمين أمام جيش «تيمور» ، وعادوا إلى المدينة ، ازدحموا في دخولهم من أبوابها ، وداس بعضهم بعضاً ، حتى صارت الرمم طول القامة ، والناس تمشي فوقها^(٣) ! .

وتكررت الأسئلة من «تيمورلنك» لعلماء «حلب» ، وطال الحوار بين الجانبين ، ولكن المصادر التاريخية لم تُفصح عن بعض المسائل التي دارت بينهما .. وأخذ «كل» من الفقهاء الحاضرين ... يُبادر إلى الجواب ، فطفق القاضي «شرف الدين الأنصاري» ينهاهم ، ويطلب إليهم السكوت ، ويسعى لإقناعهم بأن يدعوا «ابن الشحنة» يتولّى الإجابة على أسئلة «تيمور» ؛ «لأنه يعرف ما يقول»^(٤) .

(١) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٣٠٠ . المقرئزي . در العقود الفريدة ، ج ٣ ، ص ١١٢ . ابن عربشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٥ .

(٢) ابن قاضي شهبه . تاريخه ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٣) المقرئزي . السلوك ، ج ٦ ، ص ٤١ . ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٧٩ . ابن إياس . بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٥٩٧ .

(٤) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

وكانت بعض الأسئلة التي طرحها «تيمورلنك» أمام علماء «حلب» في لقائه الأول بهم غير مرتبطة بالأحداث السائدة حينذاك ، بل إنها تتعلق بأمور جرت قبل أكثر من سبعة قرون ، وتحديدًا في أواخر عصر الخلفاء الراشدين وأوائل العصر الأموي ، فقد سألهم : «ما تقولون في عليٍّ ومعاوية ويزيد» ؟ ، وفوجئ العلماء بذلك السؤال الغريب ، وأخذ العلامة «ابن الشحنة» والقاضي «شرف الدين الأنصاري» يتشاوران فيما بينهما بالجواب الأمثل له ، فبادر صاحبهما «عَلَم الدين القفصي» بإجابة «تيمور» بـ «أنَّ الكلَّ مجتهدون»^(١) ، وجاء في رواية أخرى أنه قال : «إنَّ عليًّا اجتهد وأصاب فله أجران ، ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجرٌ واحد»^(٢) ، فغضب «تيمورلنك» غضباً شديداً ، وقال : «عليٌّ على الحقِّ ، ومعاوية ظالم ، ويزيد فاسق ، وأنتم حلييُّون تبعُّ لأهل دمشق ، وهم يزيديُّون ، قتلوا الحسين»^(٣) .

وظفَّق «ابن الشحنة» يَهْدئ من غضب «تيمورلنك» ويلاطفه في الحديث ويعتذر إليه ، ويقول له إنَّ صاحبه إنَّما «أجاب بشيء وجده في كتاب لا يعرف معناه»^(٤) !! . وهذا القول العجيب يدلُّ على مدى الخوف الذي كان مسيطراً على علماء «حلب» في ذلك الموقف ، وإلَّا فكيف يقول «ابن الشحنة» عن صاحبه «عَلَم الدين القفصي» بأنَّه لا يُدرك معنى ما يقول ، مع أنَّه من العلماء البارزين في ذلك العصر .

(١) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٣٠٠ . المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ٣ ، ص ١١٢ . ابن عريشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٦ .

(٢) السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٣) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠٠ . المقرئزي . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢ . ابن عريشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠٠ . ابن عريشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجح «ابن الشحنة» في إعادة «تيمورلنك» إلى هدوئه ، واستمرّ الحوار بين الفريقين ، وعاد «تيمور» يسأل مرّة أخرى عن «معاوية» وابنه «يزيد» قائلاً لعلماء «حلب» : هل يجوز لعن «معاوية» و«يزيد» أم لا ؟ ، فأجابه القاضي «شرف الدين الأنصاري» بأن «معاوية» رضي الله عنه لا يجوز لعنه : لأنّه صحابي . وراح «تيمور» يستقصي في الأسئلة ويستفسر عن تعريف «الصحابي» ؟ ، فقال القاضي «شرف الدين» : «إنّه كلّ مَنْ رأى النبي ﷺ» . فقال «تيمور» : «فاليهود والنصارى رأوا النبي ﷺ» ، فأجاب القاضي بأنّه لا بدّ أن يكون الرائي مسلماً^(١) .

وتولّى «عبد الجبار بن نعمان الدين» - عالم «تيمورلنك» وترجمانه - متابعة الحوار والجدال مع «ابن الشحنة» و«شرف الدين الأنصاري» ، ولم يخف إعجابه بهما ، فقد وصف الأوّل بأنّه «عالمٌ مليح» ، وقال عن صاحبه بأنّه «رجلٌ فصيح» . وعاد «تيمور» إلى المشاركة في الحديث ، فسأل «ابن الشحنة» وصاحبه عن عمّيهما ، فأجابه «ابن الشحنة» بأنّه وُلد في سنة ٧٤٩هـ ، وأنّه يبلغ من العمر حينذاك ٥٤ سنة ، وقال القاضي «شرف الدين» إنّه أكبر منه بسنة ، فقال «تيمور» : «أنتما في عمّر أولادي» ، وذكر أنّه في الخامسة والسبعين من عمّره^(٢) .

وتوقّفت مجادلة «تيمورلنك» لعلماء «حلب» في ذلك اللقاء بدخول وقت صلاة المغرب في ذلك اليوم ، وهو - كما سبق ذكره - الخامس عشر من ربيع الأوّل من عام ٨٠٣هـ ، يقول «ابن الشحنة» : «وحضرتُ صلاة المغرب ، وأقيمت الصلاة ، وأمّا عبد الجبار ، وصلى تيمورلنك إلى جانبي قائماً يركع ويسجد ، ثمّ تفرّقنا»^(٣) .

(١) السخاوي . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢) ابن الشحنة . روض المناظر . ص ٣٠٠ - ٣٠١ . ابن عريشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

ويذكر «السخاوي»^(١) أن «تيمورلنك» ذهب بعد لقائه بأولئك العلماء إلى مقام إبراهيم الخليل عليه السلام^(٢) ليلاً ، وهناك التقى بجمع من القضاة ، فدخل معهم في مجادلات ومناقشات ، استمرت حتى قبيل طلوع الفجر . ولكن «السخاوي» لم يُورد أيّ تفصيل لما جرى في ذلك اللقاء ، كما لم يُفصح عن اسم أحد من أولئك القضاة .

بعد مُضيّ أيام قليلة على لقاء «تيمورلنك» بعلماء مدينة «حلب» ، عاود رغبته في الالتقاء بهم مرةً أخرى ، ففي آخر شهر ربيع الأول من سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م طلب إليهم الحضور إلى معسكره ، واقتصروا في هذه الكرة على عاملين اثنين منهم فقط ، وهما «ابن الشحنة» و«شرف الدين الأنصاري» ، فلما حضرا عنده بادرهما بإعادة السؤال الذي كان قد طرحه في لقائه السابق بهما ، وهو رأيهما في «علي» و«معاوية» رضي الله عنهما ، فأجابه «ابن الشحنة» بقوله : «لا شك أن الحق كان مع علي ، وليس معاوية من الخلفاء (أي الراشدين) ، فإنه صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»^(٣) . وقد تمت بعلي»^(٤) .

ولم يكتف «تيمورلنك» بهذا الجواب ، بل كان يريد من «ابن الشحنة» أن

(١) الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) يُشير «ياقوت الحموي» إلى أن قلعة «حلب» تحتوي على مقامين لإبراهيم الخليل عليه السلام كانا يُزاران في أيامه . معجم البلدان - بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ . ومقام إبراهيم الخليل " هذا غير مقامه المشهور ، الموجود في مكة المكرمة ، في المسجد الحرام ، كما هو معروف .

(٣) انظر : سنن الترمذي - بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ج ٣ ، ص ٣٤١ .

(٤) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٣٠١ . ابن عريشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٧ .

ينال من «معاوية» رضي الله عنه . وأن يُصرَّح بسبِّه . حيث قال له : «قُل : عليٌّ على حقٍّ ، ومعاوية ظالم»^(١) . ولكنَّ الإمام «ابن الشحنة» لم يكن لِيُسَوِّغَ لنفسه أن يقول شيئاً من ذلك ، أو ينتقص «معاوية» وهو من الصحابة ، مهما ألحَّ «تيمور» في القول وكرَّر الطلب .

وهكذا فقد تابع «ابن الشحنة» حديثه ، واسترسل في إجابته دون أن يوافق «تيمورلنك» على ما يريد ، بل أشار إلى أنَّ الحقَّ كان مع «عليٍّ» رضي الله عنه وفي الوقت ذاته كان الصحابة والتابعون يُقدِّرون «معاوية» رضي الله عنه ويُطيعونه ، وقد تقلَّد بعضهم القضاء منه^(٢) .

ولم يوجِّه «تيمورلنك» سؤالاً آخر بعد سؤاله العالمين عن رأيهما في «عليٍّ» و«معاوية» ، وكأنَّه إنَّما طلبهما في اللقاء الثاني ليسألتهما هذا السؤال فحسب .. على أنَّه أبدى سروره من لقائهما في هذه الكرَّة ، وطلب إلى بعض رجاله الذين اختارهم للبقاء في مدينة «حلب» بعد استيلائه عليها ، أن يُحسنوا معاملتهما ، وأن يبذلوا جهدهم في حمايتهما ، حيث قال : «إنَّ هذين الرجلين نزولٌ عندكم بهذه البلدة ، فأحسنوا إليهما ، وإلى أصحابهما ، ومَن ينضمُّ إليهما ، ولا تُمكنوا أحداً من إيذائهما»^(٣) .

والتزم رجال «تيمورلنك» في مدينة «حلب» بأوامره ، وفعلوا ما أوصاهم به ، فأحسنوا إلى «ابن الشحنة» و«شرف الدين الأنصاري» ، إلَّا أنَّهم لم يُنزلوهما من

(١) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠١ . المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ٣ ، ص ١١٢ - ١١٣ . ابن عربشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠١ . المقرئزي . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢ . ابن عربشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٣) ابن الشحنة . روض المناظر . ص ٣٠١ .

قلعة المدينة ، بل جعلوا مقامهما فيها ، وكان «تيمورلنك» قد وجّه أتباعه بأن يجعلوا إقامتهم في المدرسة السلطانية^(١) المواجهة للقلعة^(٢) .

خرج «تيمورلنك» في أوّل يوم من ربيع الآخر سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م من مدينة «حلب» عازماً على الزحف نحو «دمشق» ، ولكنّه ما أن تجاوز المدينة حتّى طلب حضور علمائها إليه للمرة الثالثة ، وذلك في اليوم الثاني من ربيع الآخر ، فساروا إليه ، وفي مقدّمهم العلامة «ابن الشحنة» ، وقبل أن يبلّغوا معسكره أحسّوا أنّ الناس في أمر مريع ، فسألوا عمّا يحدث ، فقيل لهم : «إنّ تيمورلنك طلب من عسكره رؤوساً من المسلمين ، على عادته التي كان يفعلها في البلاد التي أخذها» ، وفهم علماء «حلب» من هذا القول أنّ «تيمورلنك» أمر قبل أن يترك «حلب» بشنّ هجوم على المسلمين فيها مرّة أخرى^(٣) .

ولمّا بلغ العلماء معسكر «تيمور» لقيهم رجلٌ من غلمانه يدعى «عمر» ، فسألوه عن السبب الذي من أجله طُلب إليهم الحضور ، فقال لهم : إنّ تيمورلنك يريد أن يستفتيكم في أمر «نائب دمشق» - ويدعى «سودون»^(٤) - وكان «تيمور» قد عزم

(١) المدرسة السلطانية : هي إحدى مدارس «حلب» ، تُعرف أيضاً باسم «المدرسة الظاهرية» . محمد كرد علي . خطط الشام ٠٠ ط ٢ - دمشق : مكتبة النوري ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م ، ج ٦ ، ص ١٠٤) ، بناها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي سنة ٦١٢هـ . النعمي . المدارس في تاريخ المدارس ٠٠ ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .
(٢) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ . ابن عربشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ .
(٣) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠٢ . المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ٢ ، ص ١١٣ . ابن عربشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(٤) هو : سيف الدين سودون بن عبد الله الظاهري . قدم من بلاد «الجرّكس» وهو صغير ، وتربّى في بلاط المماليك ، ووُلّي على «دمشق» ، ولمّا غزا «تيمورلنك» بلاد الشام وقع في أسرهِ ، ومات في الأسر في رجب سنة ٨٠٣هـ . انظر ترجمته في ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

على معاقبته : لأنه أمر بقتل رسوله الذي وجهه إليه ، وذلك قبيل مهاجمة جيوشه مدينة «حلب» ، في أوائل ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م . وكان نائب دمشق قد حضر بجنده للوقوف مع الجيوش الشامية التي قدمت إلى «حلب» من أجل الدفاع عنها^(١).

وعَجِب علماء «حلب» من سلوك «تيمورلنك» ذلك ، إذ كيف يستفتيهم - كما قال «ابن الشحنة» - في أمر كهذا ، في الوقت الذي يُطلق فيه العنان لجيوشه لسفك دماء المسلمين في مدينة «حلب» بغير استفتاء ، مع أنه كان قد أقسم في لقائه الأول مع علمائها ، ألا يُلحق الأذى بأحد من أهلها . وعاد غلام «تيمور» المدعو «عمر» إليه ، فأخبره بما قال «ابن الشحنة» . وبينما كان علماء «حلب» ينتظرون ما يوجه إليهم إذ سمعوا «تيمورلنك» يصرخ برجاله - وكان جهوري الصوت - وما لبث أحد رجاله أن جاء مسرعاً إلى «ابن الشحنة» ومَن معه من العلماء ، واعتذر إليهم ، وأخبرهم أن «تيمور» لم يأمر بشن هجوم جديد على المسلمين في «حلب» كما كانوا يظنون ، وأنه أمر بإطلاقهم ليمضوا حيث شاءوا^(٢) .

وسار «تيمورلنك» إلى دمشق ، بينما عاد «ابن الشحنة» ومَن معه من علماء «حلب» إلى قلعة المدينة فأقاموا فيها ، وظلوا يُعاملون معاملة طيبة من قِبَل الأمير «موسى بن حاجي طغاي» ، وهو الذي ولّاه «تيمور» على حلب بعد استيلائه عليها^(٣) . وفي السابع والعشرين من شعبان سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م عاد «تيمورلنك» إلى مدينة «حلب» مرة أخرى - وذلك بعد ما هاجم «دمشق» وألحق بأهلها هزيمة

(١) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٢ . ابن عربشاه . عجائب المقدور ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ .

(٢) ابن الشحنة : المصدر السابق ، ص ٣٠٢ . المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ٣ ، ص ١١٣ .

(٣) ابن الشحنة . المصدر السابق ، ص ٣٠٢ . ابن عربشاه . المصدر السابق ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

قاسية - ولكنه لم يدخل «حلب» في هذه الكرّة ، بل عسكر في المنطقة الواقعة إلى الشرق منها، وأمر أتباعه بإشعال النار فيها وتدمير قلعتها، وفي أثناء ذلك طلب أحد كبار رجال «تيمور» - ويدعى «عزّ الدين» - حضور العلامة «ابن الشحنة» عنده، فلمّا حضر إليه أخبره أنّ «تيمور» يُبلغه وأصحابه السلام، وأنّه قد جعله «عالم بلاد الشام»، وأمر بأن تكون له كامل الحرّية هو ومَن معه من القضاة، وله أن يطلب ما يشاء^(١).

وكان هذا آخر لقاء جرى بين «تيمورلنك» وعلماء «حلب» ..

لقاءات «تيمورلنك» بعلماء «دمشق» :

كانت لقاءات «تيمورلنك» بعلماء «دمشق» ومجاداته معهم ذات شجون ، فقد جرت في ظلّ ظروف قاسية عسبية ، تفوق في شدّتها تلك الظروف التي كانت قائمة إبّان لقاءاته بعلماء «حلب» ، وكان ذلك في أثناء محاصرة «تيمورلنك» لمدينة «دمشق» ، في شهر جمادى الآخرة سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ، فبينما كان سكّان «دمشق» يُدافعون عن مدينتهم بكلّ ما أوتوا من قوّة ، ويبذلون جهدهم للحيلولة دون وقوعها في قبضة ذلك الغازي الشرس .. بينما كانوا كذلك إذا به يبعث إليهم رجلين من رجاله ، ليُوهما أهل المدينة أنّ زعيمهم يرغب في عقد صلّح معهم ، وأنّه يطلب إليهم أن يبيعوا إليه رجلاً عاقلاً حتّى يُفاوضه في ذلك^(٢) .

وظنّ أهل «دمشق» أنّ تيمورلنك صادقٌ في عرضه ، فاختراروا لمقابلته

(١) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٣٠٣ .

(٢) المقرئزي . السلوك ، ج ٦ ، ص ٥٠ . ابن حجر العسقلاني . إنباء الغمّر ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ . ابن تفرّي بردي . النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٩٠ . ابن إياس . بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦١٠ .

ومفاوضته القاضي «ابن مفلح الحنبلي»^(١)، ويعزو المؤرخ «ابن إياس»^(٢) اختيار أهل «دمشق» له إلى فصاحة لسانه ، وإتقانه للغتين التركية والفارسية . وسار «ابن مفلح» إلى معسكر «تيمور» والتقى به ، فتظاهر «تيمور» أمامه بحُسن النوايا كعاداته . حيث نَمَقَ له في الحديث ، وتلطّف معه في الكلام ، وقال : هذه بلدة الأنبياء والصحابة ، وقد اعتقتها لرسول الله ﷺ ، صدقةً عني وعن أولادي^(٣) ! .

وزعم «تيمور» أنه إنّما قدم بجيوشه نحو «دمشق» غضباً من «سودون» نائب تلك المدينة : لأنه أقدم على قتل رسوله الذي كان قد وجّهه إليه في بداية غزوه لبلاد الشام ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وحيث إنّ «سودون» وقع في أسرهِ ، فقد عزم - كما يدّعي - على سحب جيوشه والرحيل عن أطراف المدينة ، ولكنّه اعتاد إذا صالحَ أهلَ مدينة أن يُقدّموا له بعض الهدايا، وأنّه يرغب أن يُقدّم له أهل «دمشق» شيئاً من ذلك، ثمّ يسارع بالرحيل^(٤) .

(١) هو : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي الدمشقي ، يُلقَّب «برهان الدين» و«تقيّ الدين» . فقيهٌ، محدّث . درّس بدار الحديث بدمشق ، وتولّى القضاء ، وأفتى ، واشتهر وذاع صيته ، وكان بارعاً عالماً بمذهبه . انتهت إليه في أواخر أيّامه مشيخة الحنابلة في بلاد الشام، ثمّ صار قاضي قضاة الحنابلة في رجب سنة ٨٠١هـ . توفي في شعبان سنة ٨٠٣هـ . انظر ترجمته في . ابن قاضي شُهبة . تاريخه ، ج ٤ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ . ابن حجر العسقلاني . المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ . النعيمي . المدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٢) بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني . ٦١٠ .

(٣) المقرئزي . المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥٠ . ابن تغري بردي . المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٩٠ . ابن إياس . المصدر السابق ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦١٠ .

(٤) ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة . ج ١٢ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

وظنَّ «ابن مفلح» أنَّ «تيمورلنك» صادق فيما يقول ، ولذا طفق بعد عودته إلى دمشق يُثبِّط الناس عن القتال، ويُثني على «تيمور» وعلى دينه وحُسْن اعتقاده ثناءً عظيماً، ويكفَّ أهل المدينة عن محاربته ، فاستجاب لقوله فئة من الناس ، ورفضه فئة أخرى ، وفي النهاية تغلَّب رأي «ابن مفلح» ومَن معه على رأي الفئة المعارضة ، وعقدوا العزم على إتمام الصلح المزعوم مع «تيمورلنك» ، وشرعوا في تهيئة الهدايا التي طلبها^(١).

سار «ابن مفلح» إلى معسكر «تيمور» مرة أخرى ، واصطحب معه في هذه الكرّة عدداً من علماء «دمشق» وأعيانها ، ومنهم : قاضي القضاة «محيى الدين محمود بن العزّ الحنفي»^(٢) ، وابنه «شهاب الدين بن محيى الدين»^(٣) ، و«شمس

(١) المقرئزي . السلوك ، ج٦ ، ص٥١ . ابن تغري بردي . المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٩١ . ابن إياس . بدائع الزهور ، ج١ ، القسم الثاني ، ص٦١٠ - ٦١١ .

(٢) هو : محيى الدين محمود بن أحمد بن إسماعيل بن العزّ الدمشقي الحنفي . من علماء «دمشق» وقضااتها ، ولآه «تيمورلنك» بعد استيلائه عليها منصب «قاضي القضاة» وبعض الأعمال الأخرى ، ولكنه مالِث أن نقم عليه ، وعاقبه وأسرّه ، وظلَّ أسيراً حتّى عاد «تيمور» إلى مدينة «تبريز» ، حيث تمكَّن بعد فترة من الفرار ، والعودة إلى بلده . وتوفّي في ذي الحجة سنة ٨٠٨ هـ . انظر : ابن قاضي شهبه . تاريخه ، ج٤ ، ص١٦٩ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٢٧ - ١٢٨ . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ، ج٧ ، ص٨٠ .

(٣) هو : شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن محيى الدين محمود بن أحمد بن العزّ الدمشقي الحنفي من علماء «دمشق» . درّس بالمدرسة الظاهرية ، وتولّى منصب «قاضي القضاة» مرّات عدّة . أُسر مع والده في أثناء احتلال «تيمورلنك» لمدينة «دمشق» ، وظلَّ في الأسر فترة في مدينة «تبريز» ، ثمَّ عاد إلى الشام مع والده ، وتوفّي سنة ٨٢٧ هـ . انظر ترجمته في السخاوي . المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢٠ - ٢٢١ . النعيمي . الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٤٨٤ - ٤٨٦ .

الدين الحنبلي النابلسي^(١) ، و«ناصر الدين محمد بن أبي الطيّب»^(٢) ، و«شهاب الدين أحمد بن الشهيد»^(٣) . و«شهاب الدين الحسيني الشافعي»^(٤) .^(٥) .

والتقى علماء «دمشق» بتيمورلنك من جديد ، وقدموا له ما طلب من هدايا ، وفي هذا اللقاء أراد «تيمور» أن يُحَكِّم خدعته ، فأعطى «ابن مفلح» ومَن معه منشوراً يتضمّن تعيين بعضهم في مواقع رئيسة في المدينة ، مثل «قاضي القضاة» و«الوزير»

(١) هو : شمس الدين محمد بن أحمد بن محمود الحنبلي النابلسي . إمامٌ علامة . تولّى منصب «قاضي قضاة الحنابلة» بدمشق عدّة مرّات ، كما تولّى التدريس في عدد من مدارسها . توفّي سنة ٨٠٥ هـ . انظر ترجمته في . ابن حجر العسقلاني . انباء الغُمر ، ج ٥ ، ص ١١٦-١١٩ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ١٠٧ . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٥٢-٥٣ .

(٢) هو : ناصر الدين محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن هبة الله الدمشقي . المعروف بابن أبي الطيّب . درّس في بعض مدارس الشام ، كما وُلّي بعض المناصب في «حلب» و«دمشق» و«طرابلس» . وتوفّي في شهر رجب سنة ٨٠٣ هـ . انظر ترجمته في . ابن حجر العسقلاني . المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ . السخاوي . المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٣) شهاب الدين أحمد بن الشهيد : هو أحد أعيان مدينة «دمشق» إبّان غزو «تيمورلنك» بلاد الشام ، ولّاه «تيمور» الوزارة بعد استيلائه على «دمشق» ، وجاء في بعض الروايات أنّه كان وزيراً قبل قدوم «تيمور» ، فلمّا استولى على «دمشق» ولّاه الوزارة فيها من جديد ، وحينما سار عن بلاد الشام استصحبه معه ، ولكنه مالبث أن عاد إلى وطنه . انظر : ابن قاضي شهبة . تاريخه ، ج ٤ ، ص ١٦٩ ، ١٨٣ . ابن حجر العسقلاني . المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ . السخاوي . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

(٤) هو : شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن إسماعيل بن خليفة الحسيني الدمشقي الشافعي . من علماء «دمشق» وقضاتها . تولّى منصب «قاضي القضاة» فيها أكثر من مرّة ، كما درّس في بعض مدارسها ، وتوفّي سنة ٨١٥ هـ . انظر ترجمته في . ابن حجر العسقلاني . المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٧٨ - ٨٠ . ابن العماد الحنبلي . المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٥) ابن عربشاه . عجائب المقدور ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

ونحو ذلك ، وضمّن ذلك المنشور - الذي كان في تسعة أسطر فقط - أماناً لأهل «دمشق» قرئ على منبر جامع بني أمية^(١) .

ووفقاً لما تذكره بعض الروايات فقد ولّى «تيمورلنك» محيي الدين بن العزّ الحنفي منصب «قاضي القضاة» في مدينة «دمشق»، وكذلك خطابة الجامع ومشیخة الشيوخ^(٢) ، والأنظار المضافة إلى القضاء ، ونظر الجامع^(٣) ، كما ولّى «شمس الدين النابلسي» قضاء الحنابلة ، و«ابن أبي الطيّب» كتابة السر^(٤) ، و«ابن الشهيد» الوزارة^(٥) . ويعزو المؤرّخ «ابن قاضي شهبه» منح «محيي الدين بن العزّ الحنفي» عدداً

(١) المقرئزي . السلوك ، ج ٦ ، ص ٥١ . ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢ . ابن إياس . بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦١١ .

(٢) يُطلق لقب «مشیخة الشيوخ» أو «شيخ الشيوخ» على من يتولّى الإشراف على رجال الطرق الصوفية في العصور الماضية ، وفي عصر الأيوبيين والمماليك صار هذا اللقب فخرياً ، فكان يُطلق على شيخ الخانقاه الصلاحية التي بناها صلاح الدين الأيوبي ، ثمّ لما بنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية صارت مشیخة الشيوخ إلى شيخها . حسن الباشا . الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار - القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨م ، ص ٣٦٦ .

(٣) ناظر الشيء : حافظه ، والناظر : وظيفة استحدثت في العصر الأيوبي ، واستمرت بعده ، ويُعدّ صاحبها من أرباب الوظائف الدينية . مصطفى عبد الكريم الخطيب . معجم المصطلحات والألقاب التاريخية - ط ١ - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م ، ص ٤٩ .

(٤) كتابة السرّ : هي إحدى الوظائف السائدة في دواوين الخلفاء والسلاطين في العصور الماضية ، ولا سيّما في عصر المماليك ، وتُعدّ من الوظائف المهمّة ، ومن يتولّاها يحظى بالتقدير عند الخلفاء ، يُطلعونه على أسرارهم ، ويخصّونه بخفايا أمورهم ، وهو أوّل من يدخل على الملوك ، وآخر من يخرج من عندهم . لمزيد من المعلومات ، انظر : السبكي : معيد النعم ومبيد النقم - ط ١ - بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣٠ . ابن كنّان . حقائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين : تحقيق عباس صباغ - بيروت : دار النفائس ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م ، ص ١٦٧ .

(٥) ابن قاضي شهبه . تاريخه ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .

من المناصب دون غيره من علماء «دمشق»، إلى كون «تيمور» لا يُعظم إلا الحنفية^(١).

وفي أثناء هذا اللقاء جرت بين «تيمورلنك» وعلماء «دمشق» بعض المناظرات والمجادلات ، وهي تُشبه في بعض جوانبها تلك المجادلات التي جرت بينه وبين علماء «حلب» ، وكان «عبد الجبار بن نعمان الدين» - عالم «تيمورلنك» وترجمانه - يُخاطبهم بلسانه ، وقد سألهم عن رأيهم فيما جرى بين «علي» و«معاوية» رضي الله عنهما ، و«يزيد بن معاوية» و«الحسين بن علي» ، وكان «تيمور» يرى أنّ أهل الشام مسؤولون عمّا جرى للحسين ، وأنّ هذه المسؤولية تظلّ متعلّقة بهم مهما تطاول الزمان وتعاقبت الليالي والأيّام : لأنّ «الحاضرين على مذهب الغابرين»^(٢) . وقد ردّ علماء «دمشق» على سؤال «تيمورلنك» بأجوبة متنوعة ، قبل بعضها وردّ البعض الآخر^(٣) ، ولكنّ المصادر لم تُفصّل عن كثير منها .

وسألهم «تيمورلنك» : ما أعلى الرُتب ، درجة العلم أم درجة النسب ؟ ، فوجم أكثرهم عن إجابته ، وتردّدوا خوفاً منه ، ثمّ أجابه القاضي «شمس الدين النابلسي» بأنّ «درجة العلم أعلى من درجة النسب . ومرتبته عند الخالق والمخلوق أسنى الرُتب»^(٤) . وما لبث هذا القاضي أن ضاق ذرعاً بمداراته لتيمورلنك ، ونزع ثيابه مُبدئاً استعداداً للشهادة على يده ، وطَفِقَ يُجادله بكلّ جرأة ، ومع أنّ «تيمور» أبدى شيئاً من التذمّر والتعجّب من كلامه وجرأته ، إلّا أنّه لم يُخَفِّ إعجابه بمنطقه ،

(١) لمصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن عريشاه . عجائب المقدور ، ص ٢٦١ .

(٣) المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ١ ، ص ٥٢٩ . ابن عريشاه . المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٤) ابن عريشاه . المصدر السابق ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

حيث ردّ بقوله : «لله هذا ، ما أفصحه ، وأجرأه في الكلام وأوقحه ، ثمّ نظر إلى القوم ، وقال : لا تُدخلنّ هذا عليّ بعد اليوم»^(١) .

وبينما كان علماء «دمشق» في مجلس «تيمورلنك» ، إذا برجاله يُحضرون عالماً من علماء مصر وقع أسيراً في أيديهم ، وهو القاضي «صدر الدين المناوي»^(٢) ، وكان قد أتى إلى بلاد الشام مع جيش المماليك الذي جاء لمحاولة التصديّ لتيمور ، وحينما عاد الجيش المملوكي إلى مصر لاذ بالفرار ، ولكنّ رجال «تيمور» أسروه ، فلما أُحضر بين يديه تخطّى مَنْ كان في مجلسه من العلماء ، وجلس قبل أن يأذن له ، فاستشاط «تيمور» غضباً ، وأمر بعض رجاله بإخراجه ، والتكيل به ، فسحبوه بشكل مهين ، ومزّقوا ثيابه ، وأوسعوه سباً وشتماً ، وانهالوا عليه بالضرب المبرح ، ثمّ أمرهم «تيمور» بتشديد أسره والتضييق عليه^(٣) .

وعاد علماء «دمشق» من معسكر «تيمورلنك» ، وهم يظنّون أنّه صادق في منحه الأمان للناس ، وظلّوا يُكثرون من الشاء عليه ، وبثّ محاسنه وفضائله ، بل إنهم دعوا الناس في «دمشق» إلى طاعته وموالاته ! . وكان «تيمور» قد طلب في لقاءه الثاني بهم أن يجمعوا له من أهل المدينة فدية قدرها «ألف ألف دينار» ، فحثّ «ابن

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) هو : صدر الدين أبو المعالي محمد بن إبراهيم بن إسحاق المناوي الشافعي : قاضي قضاة الشافعية في مصر في زمنه . تولى التدريس والإفتاء ، وكان مهيباً شهماً معظماً عند الناس . توفّي غريقاً في أحد الأنهار في شهر شوال سنة ٨٠٣هـ ، بعدما وقع في أسر «تيمورلنك» . انظر ترجمته في : ابن قاضي شعبة . تاريخه ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ . ابن حجر العسقلاني . ذيل الدرر الكامنة ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٣) ابن عريشاه . عجائب المقدور ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

مفلح» الناس على سرعة أدائها ، فلما اكتمل جمع المال حملهُ «ابن مفلح» وسار به إلى معسكر «تيمور»^(١) .

والتقى «تيمورلنك» بـ «ابن مفلح» ومَن معه للمرة الثالثة ، ولكنَّ هذا اللقاء كان مختلفاً عن سابقه ، فقد كثر فيه «تيمور» عن أنيابه ، وبدا على حقيقته التي طالما اتَّصف بها ، والمتَّسمة بالعنف والشراسة ، وتلاشت تلك المظاهر الكاذبة التي ظهر بها في اللقاءين السابقين ، فما أن بلغ «ابن مفلح» وأصحابه مجلسه ، ووضعوا المال الذي فرضه على أهل «دمشق» بين يديه ، وعالينه ، حتَّى غضب غضباً شديداً ، ولم يرض به ، وأمر القاضي «ابن مفلح» ومَن كان معه أن يخرجوا من مجلسه ، فأخرجوا بصورة مهينة ، ولم يتيسر لهم الرجوع إلى «دمشق» ، بل وجدوا أنفسهم أسرى في يد جماعة من رجال «تيمورلنك» ، ولم يُخلَّ سبيلهم إلَّا بعد أن التزموا بأن يُؤدّوا لتيمور «ألف تومان» ، و«التومان» يساوي - كما يقول المؤرِّخون - «عشرة آلاف دينار من الذهب»، ممَّا يعني أنَّهم تعهّدوا بأن يُؤدّوا له «عشرة آلاف ألف دينار»^(٢) .

وعاد القاضي «ابن مفلح الحنبلي» ومَن معه من علماء «دمشق» ، وفرضوا على أهل بلدتهم جمَّع ما التزموا بأدائه إلى «تيمور» ظناً منهم أن ذلك سيجعله يؤوب إلى الرشاد ، ويبتعد بجحافلِه عن المدينة ، واشتدَّ الأمر على الناس ، وتقطّعت بهم الأسباب ، ولما اكتمل جمع المال حملهُ «ابن مفلح» إلى «تيمورلنك» ، والتقى به للمرة الرابعة ، ولكنَّ هذا اللقاء الأخير لم يكن أفضل من سابقه ، فقد أبان فيه

- (١) المقرئزي . السلوك ، ج٦ ، ص٥١ . ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص١٩٢ . ابن إياس . بدائع الزهور ، ج١ ، القسم الثاني ، ص٦١١ - ٦١٢ .
(٢) المقرئزي . المصدر السابق ، ج٦ ، ص٥١ . ابن تغري بردي . المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٩٢ . ابن إياس . المصدر السابق ، ج١ ، القسم الثاني ، ص٦١٢ .

«تيمورلنك» عن استمرار سخطه وتسلبه أمام القاضي «ابن مفلح» وأصحابه ، ولم يُبدِ قناعته بما حملوا له من أموال طائلة ، بل ظلَّ يُطالبهم بالمزيد^(١) .

ولما استولى «تيمورلنك» على كلِّ شيء ، قبض على القاضي «ابن مفلح» وأصحابه ، «وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها»! ، ففعلوا ، وفرَّق ذلك على كبار رجاله ، وقسم البلد بينهم ، فهيمنوا عليها ، وحلَّ بها من البلاء ما لا يوصف ، وذاق أهلها أنواع العذاب والنكال^(٢) .

ويبدو أنَّ لقاءات «تيمورلنك» بعلماء «دمشق» ومجاداته معهم لم تنته عند ذلك الحدِّ ، بل إنَّه التقي بهم بعدما سيطر على البلدة أيضاً ، فقد ذكرت بعض الروايات أنَّه دخل الجامع الأموي فوجد فيه عدداً من المحاريب ، أحدها مطليّ بالذهب واللازورد ، وبقيتها بلا دهان ، فسأل العلماء عن سبب تميّز ذلك المحراب عن غيره ، ف قيل له : هذا محراب الشافعيَّة ، ثمَّ سأل "ابن مفلح" : أيَّ الإمامين أفضل : أبو حنيفة ، أم الشافعي ؟ وألحَّ عليه في طلب الجواب ، ووجد «ابن مفلح» حرجاً في تفضيل أحدهما على الآخر ، فقال : إنَّ هذين الإمامين لا يُفرَّق بينهما إلَّا مَنْ كان نظيراً لهما في العلم والمنزلة^(٣) .

لقاءات «تيمورلنك» بـ «ابن خلدون» :

كان العلامة والمؤرِّخ الكبير "عبد الرحمن بن خلدون" يسمع بتيمورلنك وبحروبه وغزواته منذ أن كان مقيماً في بلاد المغرب ، وحينما زحف «تيمور» إلى

(١) المقرئزي . السلوك ، ج٦ ، ص ٥١ ، ٥٢ . ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج ٢١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

ابن إياس . بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦١٢ ، ٦١٣ .

(٢) المقرئزي . المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥٣ . ابن تغري بردي . المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

ابن إياس . المصدر السابق ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦١٤ - ٦١٥ .

(٣) الصيرفي . نزهة النفوس والأبدان ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

بلاد الشام كان «ابن خلدون» قد رحل إلى مصر وأقام بها، وتولّى لفترة من الزمن منصب «قاضي القضاة» فيها^(١).

ولمّا سار السلطان المملوكي " الناصر فرج بن برقوق"^(٢) على رأس جيوشه من مصر إلى الشام ، في ربيع الأوّل سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ، في محاولة لمواجهة «تيمورلنك» وجيوشه ، كان «ابن خلدون» برفقته ، حيث دخل معه مدينة «دمشق» ، وكان «تيمور» حينذاك متّجهاً بجحافلّه إليها ، وبعد أن أمضى السلطان " الناصر فرج " في «دمشق» أياماً معدودات انسحب بجنوده عائداً إلى مصر ، دون أن يدخل مع «تيمورلنك» في معركة فاصلة . غير أنّ العلامة «ابن خلدون» لم يعد في ركابه ، بل بقي في مدينة «دمشق»^(٣).

ويبدو أنّ شهرة «ابن خلدون» ومنزلته العلمية قد ترامت إلى أسماع «تيمورلنك» ، فقد كان يعرفه ويسمع به قبل أن يلتقيا ، كما كان يعلم بقدومه إلى «دمشق» بصحبة السلطان المملوكي ، وكان يرغب في لقائه ومحادثته ، ففي أحد

(١) ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً : تحقيق محمد بن تاويت الطنجي - القاهرة ، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ، ص ٣٦٩ ، ٣٧١ . وقد ألحق «ابن خلدون» أجزاء من هذا الكتاب في المجلّد الأخير من تاريخه ، انظر : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من وي السلطان الأكبر - بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١م ، ج ١٤ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢) هو : السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق بن أنس ، من سلاطين المماليك الجراكسة . ولد في سنة ٧٩١هـ ، وتولّى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٨٠١هـ ، وهو في العاشرة من عمره ، وجرت في أيامه الكثير من الفتن والصراعات . مات في سنة ٨١٥هـ . انظر ترجمته في . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ١٦٨ . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١١٢ .

(٣) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

اللقاءات التي جمعت «تيمور» بـ «ابن مفلح الحنبلي» سأل «تيمور» عن «ابن خلدون» ، وهل عاد مع السلطان وجيشه إلى مصر ، أم ظلّ مقيماً في «دمشق» ؟ فأجابه «ابن مفلح» بأنّه لم يعد ، وأنّه مقيمٌ في المدرسة «العادلية»^(١) في المدينة^(٢) . ويرى «المستشرق» «والتريشيل»^(٣) أنّ «تيمورلنك» ربّما يكون قد علم بقدوم «ابن خلدون» إلى بلاد الشام عن طريق بعض جواسيسه ومُخبريه الذين كانوا في مدينة «دمشق» ، ولذا سأل القاضي «ابن مفلح الحنبلي» عنه .

وكان «ابن خلدون» هو الآخر حريصاً على لقاء «تيمورلنك» ، ولذا بادر بالخروج من «دمشق» إلى معسكره وسار إليه لوحده ، ويرى «والتريشيل»^(٤) أنّه بالرغم من اجتماع «ابن خلدون» ببعض علماء «دمشق» قبل لقائهم «تيمورلنك» ، وبالرغم مما أبداه من رغبة في المسير معهم ، إلّا أنّه لم يصحبهم ؛ لكونه يؤثر الذهاب للقائه منفرداً .

كان بعض أتباع «تيمور» معسكرين قرب أحد أبواب المدينة ، فلمّا خرج «ابن خلدون» اصطحبوه ، وقدّموا له دابةً للركوب ، وحينما بلغ مقرّ «تيمور» أُذن له أن يجلس في خيمة مجاورة لخيمته ، ثمّ استدعاه إلى مجلسه فدخل عليه ، وفاتحه

(١) المدرسة العادلية : هي إحدى المدارس الدمشقية . أوّل مَنْ أنشأها السلطان نور الدين محمود بن زنكي، ولكنّه توفّي قبل إتمامها ، فتابع بناءها بعض السلاطين من بعده ، إلى أن بناها بناءً تاماً الملك «العادل أبو بكر محمد بن نجم الدين الأيوبي» ، فسُمّيت «العادلية» . انظر : النعمي . الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٦٨ .

(٣) لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، (وهو ترجمة للنصّ الذي أورده ابن خلدون عن لقائه بتيمورلنك في كتابه التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً .. مع تعليقات مطوّلة) : ترجمة محمد توفيق - بيروت : دار مكتبة الحياة ، ص ١١٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

بالسلام، وأوماً له احتراماً . فرفع «تيمور» رأسه ، ثم مدَّ يده فقبلها «ابن خلدون» ! . وأشار إليه بالجلوس فجلس^(١) . وقد وصف «ابن خلدون»^(٢) مجلس «تيمورلنك» وهيبته ، فذكر أنّه كان متكئاً على مرفقه . وصحّاف الطعام تمرّ بين يديه ، وهو يُشير بها إلى بعض أتباعه ، الذين كانوا جلوساً أمام خيمته .

واستدعى «تيمورلنك» عالمه وترجمانه «عبد الجبار بن نعمان الدين» ليرجم ما يدور بينهما من حديث وحوار ، ثمّ شرع في طرح أسئلته واستفساراته ، وكان أوّل سؤال وجهه إلى «ابن خلدون» هو : من أين جئت ، ولمَ جئت ؟ ، فأجابه بأنّه جاء من بلاده (أي المغرب) لأداء فريضة الحجّ ، وقد ركب البحر إلى مصر، وبلغ الإسكندرية في يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م ، وكان أهل مصر يقيمون الأفراح حينذاك، ابتهاجاً بارتقاء «الظاهر برقوق»^(٣) عرش السلطنة المملوكية^(٤) .

وسأل «تيمور» «ابن خلدون» عن أسلوب السلطان «الظاهر برقوق» في التعامل معه ، وموقفه منه ، فأثنى عليه خيراً ، وذكر أنّه برّ بمقدمه إلى بلاده ، وزوّده بما احتاج إليه عندما عزم على أداء فريضة الحجّ، ولمّا عاد أجرى له رزقاً ، وأقام في ظلّه ونعمته . ثمّ سأله عن كيفية تولّيه القضاء من قبل السلطان «الظاهر» ، فأجاب

(١) ابن خلدون . المصدر السابق ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦٨ .

(٣) هو السلطان الظاهر برقوق بن أنس ويقال أنص الجركسي . أوّل سلاطين المماليك الجراكسة بمصر . تولّى الحكم في سنة ٧٨٤هـ ، وجرت بعض الحوادث والصراعات التي أدّت إلى عزله بعد سنوات قليلة ، ولكنّه ما لبث أن عاد ليرتقي عرش السلطنة من جديد في سنة ٧٩٢هـ ، واستمرّ حتّى وفاته سنة ٨٠١هـ . انظر ترجمته في . السخاوي . الضوء اللامع، ج ٢، ص ١٠ - ١٢ . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٦ - ٧ .

(٤) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٦٩ .

«ابن خلدون» بأنه لما توفي قاضي المالكية ولأه مكانه ، لأنه كان يحسن الظنَّ به ، ويراه أهلاً للقيام بتلك الوظيفة ، متحريراً للحق والعدل ، معرضاً عن الجاه^(١) .

قال «تيمور» : «وأين ولدك» ؟ ، فأجاب العلامة «ابن خلدون» : «بالمغرب الجوّاني» ، فقال : «وما معنى الجوّاني» في وصف المغرب ؟ ، قال : «هو في عُرف خطابهم معناه الداخلي ، أي الأبعد ؛ لأنَّ المغرب كلّهُ على ساحل البحر الشامي (البحر المتوسط) من جنوبه^(٢) ، فالأقرب إلى هنا برقة وإفريقية . والمغرب الأوسط : تلمسان وبلاد زناتة . والأقصى : فاس ومراكش ، وهو معنى الجوّاني»^(٣) .

وكان «تيمورلنك» يسمع ببعض مدن المغرب المشهورة مثل «طنجة» و«سبتة» و«سجلماسة» و«فاس» ، ولذا سأل عن موقعها بين بلدان المغرب مبتدئاً بمدينة «طنجة» ، فأجابه «ابن خلدون» بأنها تقع «في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزُّقاق ، وهو خليج البحر الشامي» ، فقال : و«سبتة» ؟ فأجابه بأنها «على مسافة من طنجة ، على ساحل الزُّقاق ، ومنها التعدية إلى الأندلس لقرب مسافتها ؛ لأنها هناك نحو العشرين ميلاً» . فقال : ومدينة «فاس» ؟ فأجابه «ابن خلدون» بأنها تختلف عن المدينتين السابقتين من حيث كونها لا تُطلّ على البحر ، بل هي في وسط التلال . فقال «تيمور» : و«سجلماسة» ؟ فأجاب : «في الحدّ ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب»^(٤) .

ويبدو أنّ «تيمورلنك» كان حريصاً على معرفة جميع التفاصيل المتعلقة

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٦٩ .

(٢) تُطلّ منطقة المغرب على البحر المتوسط من جهته الجنوبية الغربية .

(٣) ابن خلدون . المصدر السابق ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

(٤) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٧٠ .

بجغرافية بلاد المغرب . حيث أوضح لابن خلدون أنه لا يكتفي بتلك المعلومات اليسيرة التي ذكرها له عن بعض المدن المغربية . وطلب إليه أن يُدوّن له وصفاً شاملاً ومفصلاً لتلك البلاد ، أقاصيها وأدانيها ، جبالها وأنهارها ، مدنها وقراها ، حتّى كأنّه يُشاهدها ، فوعده العلامة «ابن خلدون» بتحقيق مطلبه^(١).

وطال اللقاء بين الرجلين ، وبدا جلياً أنّ «تيمورلنك» كان يحمل تقديراً كبيراً لابن خلدون ، فلم يُحاول التعنّت معه في الأسئلة والجدال ، أو يُسمعه كلاماً قاسياً ، كما أنّه أمر في أثناء اللقاء بعض خدمه بإحضار الطعام ، فلمّا أحضروه أمرهم بعرضه أولاً على «ابن خلدون» ، فأكل شيئاً منه ، فسُرّ «تيمور» بذلك «ووقع... منه أحسن موقع»^(٢).

ويعزو المستشرق " والتر فيشل"^(٣) موقف «تيمورلنك» من «ابن خلدون» ، والمتّسم بالإجلال والتقدير ، إلى كونه - كما يقول بعض المؤرّخين - ذا ملامح متميّزة ومظهر جذّاب ، ولتمتّعته بالبلاغة والفطنة والذكاء . ولعلّه يشير بذلك إلى ما ذكره «المقريزي» من أنّ «تيمورلنك» أُعجب بمظهر «ابن خلدون» وحديثه ونبوغه ، حيث قال : «فأعجبه حسن هيئته وجمال صورته، وخبه بعذوبة منطقه ، ودهاء بكثرة مغالاته في إطرائه»^(٤).

على أنّ «ابن خلدون» كان - رغم ذلك - يشعر في أثناء ذلك اللقاء بالخوف والقلق ، وكان سبب وجّله - كما ذكر هو نفسه - ما نما إلى علمه من خبر قاضي قضاة الشافعية «صدر الدين المناوي» ، الذي كان قد وقع في أسر رجال «تيمورلنك» ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠ .

(٣) لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ص ١٣٠ .

(٤) درر العقود الفريدة ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ .

حينما طاردوا جنود السلطان المملوكي «الناصر فرج» بعد انسحابهم من «دمشق» وعودتهم إلى مصر ، وما كان من سجنه والإساءة إليه^(١) .

وقد دفع ذلك القلق «ابن خلدون» إلى أن يتلطّف كثيراً في القول أمام «تيمورلنك» ، وأن يتظاهر بتقديره - كما يقول - بل ويُبَالِغ في مدحه وتعظيم أحواله ، حيث قال له : «أَيَّدَكَ اللهُ ، لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنّى لقاءك» ، فسأله «عبد الجبَّار بن نعمان الدين» - ترجمان تيمور - عن سبب هذه الأمانة ، فأجاب «ابن خلدون» - موجّهاً كلامه إلى «تيمورلنك» - قائلاً : «أمران : الأول أنّك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما أعتقد أنّه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملكٌ مثلك ، ولستُ ممّن يقول في الأمور بالجزاف ، فإنّي من أهل العلم» ، وطَمَق «ابن خلدون» في تفصيل قوله ، فتحدّث عن العرب والتُّرك ، وكيف ارتفع شأنهما في سالف الزمان ، وأطنب في مدح التُّرك ، وأنه «لا يُساويهم في عصبيّتهم أحدٌ من ملوك الأرض ، من كسرى ، أو قيصر ، أو الإسكندر ، أو بختنصر . أمّا كسرى فكبير الفُرس ومليكهم ، وأين الفُرس من التُّرك ؟ وأمّا قيصر والإسكندر ، فملوك الروم ، وأين الروم من التُّرك ؟ وأمّا بختنصر فكبير أهل بابل والنبط ، وأين هؤلاء من التُّرك» . وبين «ابن خلدون» أنّ ما قاله برهان واضح على صحّة ما ذكره في «تيمور»^(٢) ؛ لأنّه ينحدر - وفقاً لقول بعض الروايات - من أصول تركية^(٣) .

ثمّ كشف «ابن خلدون» عن الأمر الثاني الذي دعاه إلى تمنيّ لقاء «تيمورلنك» ،

(١) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٢) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٣) سبق أن أشرنا في مستهلّ هذه الدراسة إلى اختلاف المؤرّخين في أصل «تيمورلنك» ، وأنّ بعضهم يرى أنّه ينتمي إلى أصول مغولية .. بينما يرى البعض الآخر أنّه ينحدر من أصل تركي ، وأنّ أمّه من أصل مغولي .

وهو ما كان يسمعه من بعض الناس في المغرب عنه وعن ظهوره ، بل وعن بعض الأساطير التي كانت تُحكى من قِبَل بعض المنجّمين عنه قبل ظهوره على مسرح الأحداث^(١) .

ويرى المستشرق «والتر فيشل»^(٢) أن ما ذكره «ابن خلدون» من أنّه كان متلهّفاً على لقاء «تيمورلنك» منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، يدلّ على أنّه كان متتبّعاً لسيرته ، مطّلعاً على أخباره وأعماله ، وأن ما رواه عن نسبه وحملاته وغزواته في آسيا في كتابيه «العبر وديوان المبتدأ والخبر ..» و«التعريف بابن خلدون» يُشير إلى أنّه كان قد جمع معلومات تاريخية عن «تيمور» قبل أن يلتقي به بفترة طويلة ، ويؤيد ذلك - كما يقول " فيشل " - ما ذكره المؤرّخ " ابن قاضي شهبه" ^(٣) من أنّ «ابن خلدون» أخبر «تيمور» في أثناء لقائه به أنّه دونّ سيرته ، وأنّه يرغب في قراءتها عليه ، ليتمكّن من تصحيح ما ورد فيها من أوهام، فوافق «تيمور» على ذلك .

ويبدو أن «تيمورلنك» كان يُصغي لكلّ ما يقوله «ابن خلدون» باهتمام ، وقد ظلّ بعض ما قاله له في أثناء حديثه عالقاً في ذهنه ، ولاسيّما ما ذكره عن ملوك الفرّس والروم واليونان والبابليين ، ولذا عبّ على كلامه - متظاهراً بالعلم - قائلاً: «أراك قد ذكرتُ بختنصرَ مع كسرى وقيصر والإسكندر ، ولم يكن في عِدادهم ، لأنّهم ملوكُ أكابر ، وبختنصرَ قائدٌ من قوَاد الفرّس» ، ثمّ سأله عن «بختنصر» ومن أيّ الطوائف هو ؟ فأجابه «ابن خلدون» بقوله : «بين الناس فيه خلاف ، فقليل من النبط بقيّة ملوك بابل ، وقليل من الفرّس الأولى» ، فقال : «يعني من ولد منوشهر

(١) ابن خلدون . المصدر السابق ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٢) لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ص ١٣٥ .

(٣) تاريخ ابن قاضي شهبه ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .

(منوجهر) - وهو أحد ملوك الفرس القدماء - فردّ «ابن خلدون» بقوله : «نعم هكذا ذكروا»^(١) .

وبدا «تيمورلنك» مزهواً بنفسه ، وطفق يتبجح مدّعياً أنّ له ولقومه صلة قرابة بـ " منوشهر " (منوجهر) ، حيث قال : «ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمّهات» ، فوافقه «ابن خلدون» على قوله ، بل إنّه عبّر للترجمان عن إعجابه وتقديره لما ذكره «تيمور» بشأن تلك القرابة ، وأشار إلى أنّ ذلك من الأسباب التي دعته إلى تمّي لقاءه^(٢) .

وعاد «تيمور» يسأل العلامة «ابن خلدون» مرّة أخرى عن «بختنصر» ، وأيّ القولين عنده أرجح ، أهو من بقيّة ملوك بابل ، أم من الفُرس القدماء ؟ ، فقال «ابن خلدون» : إنّّه من بقيّة ملوك بابل ، وأراد «تيمور» أن يدّعي - كعادته - بأنّ له في العلم باعاً ، فذهب إلى ترجيح القول الآخر ، غير أنّ «ابن خلدون» دافع عن رأيه ، مشيراً إلى أنّ الإمام " الطبري " ذهب إلى هذا القول ، وهو مؤرّخ الأُمّة ومحدثها ، ولكنّ «تيمور» لم يشأ أن يتنازل عن رأيه ، وأبدى عدم الاكتراث بقول «الطبري» ، وتمسّك بما ذهب إليه ، وقال : «نُحضر كتب التاريخ للعرب والعجم ، ونناظرُك» ، فقال «ابن خلدون» : «وأنا أيضاً أناظرُ على رأي الطبري»^(٣) .

على أنّ تلك المناظرة بين «تيمورلنك» و«ابن خلدون» لم يُقدّر لها أن تتمّ ، فقد توقّف الحديث بينهما عند ذلك الحدّ ، ولعلّ ذلك يُعزى إلى ما ذكره «ابن خلدون»^(٤)

(١) ابن خلدون . التعريف ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

من أن الأخبار جاءت في أثناء لقائهما بأن باب مدينة «دمشق» قد فُتح ، فسار «تيمور» نحوها ، وحينما استقرّ في المدينة دخل إليه قضاتها وأعيانها ، وكان «ابن خلدون» في جملتهم ، فأشار «تيمور» إليهم بالانصراف ، باستثناء «ابن خلدون» . الذي طلب إليه الجلوس ، فجلس برهةً ، ثمّ استأذنه في الانصراف فأذن له ، فانصرف إلى بيته .

ومضت عدّة أيام قبل أن يتكرّر اللقاء بين الرجلين ، كان العلامة «ابن خلدون» مقيماً خلالها في بيته ، منشغلاً بتدوين ما طلب منه «تيمورلنك» من وصف لبلاد المغرب ، وقد تمكّن من إنجازها في أيام قليلة ، وبعثه إلى «تيمور» ، فتسلّمه ، وأمر بعض أتباعه بترجمته إلى اللغة المغولية^(١) .

ويذكر " ابن قاضي شهبه"^(٢) أن «ابن خلدون» لما دَوّن ما طلبه «تيمورلنك» ، قرئ عليه باللسان الأعجمي ، فأعجبه ، ثمّ إنّه سأل «ابن خلدون» : هل دَوّن أخبار المغرب فقط ؟ ، فأخبره أنّه كتب أخبار الشرق والغرب وأسماء الملوك ، وأنّه دَوّن ترجمة «تيمورلنك» ويرغب في قراءتها عليه ؛ ليعرف ما كان منها صحيحاً فَيُبقّيه ، وما كان غير صحيح فيُصلّحه ، فأذن له ، فلمّا قرأ نسبه سألّه «تيمور» : من أين عرفه ؟ ، فقال : «سألتُ عنه التجّار الثقات الواردين» ، ثمّ تابع قراءته ، فذكر فتوحاته وأحواله وابتداء أمره ، فأعجبه ذلك كثيراً .

ويذكر «ابن خلدون» أنّه حينما كان في معسكر «تيمورلنك» حضر رجلٌ من أهل مدينة «دمشق» من نسل العباسيّين الذين كانوا قد نُصّبوا بعد سقوط الخلافة العباسية في «بغداد» ، خلفاء في مصر ، في ظلّ دولة المماليك ، والتمس من «تيمور»

(١) ابن خلدون . التعريف ، ص ٢٧٤ .

(٢) تاريخ ابن قاضي شهبه ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .

أن يُنصَّب خليفَةً ، فقال له «تيمورلنك» : «أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة . فإن حكموا لك بشيء أنصفتك فيه»^(١) .

واستدعى «تيمورلنك» بعض الفقهاء والقضاة إلى مجلسه، فحضرُوا عنده، وفيهم «ابن خلدون» - وكان موجوداً في معسكره - وحضر الرجل العبّاسي، فطلب إليه «عبد الجبار بن نعمان الدين» - عالم «تيمور» وترجمانه - أن يتكلّم ويُفْضي بما لديه، فذكر أنّ الخلافة كانت لأسلافه من بني العبّاس، وادّعى أنّ هناك حديثاً نبوياً يُفيد أنّ الخلافة لهم، وأنّه أحقّ بها من الخليفة الموجود حينذاك في مصر، والذي كان من نسل بني العبّاس أيضاً^(٢)، لأنّ آباءه كانوا ممّن تولّوا الخلافة في بداية انتقالها إلى مصر، فسأل «عبد الجبار» الفقهاء والقضاة عن رأيهم فيما قال، فسكتوا قليلاً، ثمّ سألهم عن الحديث الذي ساقه، فاتّفقوا على بطلانه، وأنّه حديثٌ غير صحيح^(٣). ثمّ إنّ «تيمورلنك» سأل «ابن خلدون» عن أسباب استمرار الخلافة لبني العبّاس في مصر إلى ذلك العصر، فأجابه جواباً مفصّلاً ذكر فيه كيف آلت الخلافة للعبّاسيّين بعد الأمويّين، وكيف استمرّت حتّى سقوط «بغداد» على أيدي المغول، ثمّ كيف نصّب السلطان المملوكي «الظاهر بيبرس»^(٤) في مصر خليفة من

(١) ابن خلدون . المصدر السابق ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٢) عن الخلفاء العبّاسيين بمصر . انظر : السيوطي . تاريخ الخلفاء -٠ بيروت : دار الفكر ، ص ٤٣٩ وما بعدها .

(٣) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٧٥ .

(٤) هو : السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس بن عبد الله البندقداري . من أوائل سلاطين المماليك ومشاهيرهم . تولّى الحكم في سنة ٦٥٨هـ ، وكانت له بصمات واضحة في التاريخ المملوكي ، كما كان له أثر كبير في مواجهة الصليبيين والمغول في بلاد الشام . توفي سنة ٦٧٦هـ . انظر ترجمته وأخباره في: ابن شاکر الكتبي. فوات الوفيات: تحقيق إحسان عبّاس -٠ بيروت : دار صادر ، ج ١ ، ص ٢٣٥ - ٢٤٧ . المقريزي . السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٠ وما بعدها . ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٦ وما بعدها .

نسل بني العباس . وتوارث عددٌ منهم الخلافة بعده حتى ذلك العهد . فلَمَّا أنهى «ابن خلدون» كلامه قال «تيمورلنك» للرجل العباسي : «قد سمعتَ مقال القضاة وأهل الفتيا . وظهر أنَّه ليس لك حقٌّ تطلبه عندي ، فانصرفَ راشداً»^(١) .

وبعد مضيَّ أيامٍ قليلةٍ على لقاء «ابن خلدون» لتيمورلنك، عقد العزم على زيارته واللقاء به مرَّةً أخرى، وقد أشار عليه بعض أصحابه أن يحمل معه في هذه الكرَّة بعض الهدايا إلى «تيمور» ، فاشترى مصحفاً، وسجَّادةً ، ونسخة من قصيدة «البردة» المشهورة ، التي قالها «البوصيري»^(٢) في مدح النبي ﷺ ، وأربعٍ علبٍ من الحلوى الفاخرة، وسار إلى «تيمور»، وكان مقيماً حينذاك في معسكره بجوار مدينة دمشق^(٣) .

ولَمَّا دخل «ابن خلدون» إيوانه ورآه «تيمورلنك» مثُلَّ قائماً - احتراماً له وتقديراً - ثمَّ أشار إليه بالجلوس عن يمينه فجلس ، ومن ثمَّ قدَّم له ما حمله من هدايا ، فأعطاه المصحف أولاً ، فأظهر «تيمور» التعظيم والتبجيل له ، حيث وضعه على رأسه ، ثمَّ ناوله قصيدة «البردة» فسأله عنها وعن ناظمها ، فأجابه ، ثمَّ أعطاه السجادة فقبَّلها ، وأخيراً وضع الحلوى بين يديه ، فقسمها «تيمور» بين الحاضرين في مجلسه ، وأظهر امتنانه وشكره لابن خلدون^(٤) .

(١) ابن خلدون . المصدر السابق ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٢) هو "شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حمَّاد البوصيري . من شعراء القرن السابع الهجري . ولد في مصر وعاش فيها ، وله قصائد كثيرة مشهورة . توفي في حدود سنة ٦٩٦هـ . انظر ترجمته في: الصفدي . الوافي بالوفيات : تحقيق أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى - ط ١ - بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ، ج ٣ ، ص ٨٨ - ٩٤ . ابن شاکر الكتبي . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٩ .

(٣) ابن خلدون . المصدر السابق ، ص ٣٧٧ .

(٤) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٧٧ .

وقد شجّع موقف «تيمورلنك» ذلك «ابن خلدون» على أن يلتمس منه تحقيق بعض المطالب ، حيث افتتح كلامه بقوله : «أيّدك الله ، لي كلامٌ أذكره بين يديك» ، فطلب إليه «تيمور» أن يُدلي بما لديه من قول ، فذكر «ابن خلدون» أنّه غريبٌ في بلاد الشام غربتين ، غربته الأولى : بُعدُه عن المغرب ، الذي هو وطنه ومنشؤه ، والغربة الثانية : بُعدُه عن أهله وأصحابه في مصر ، وأنّه يلتمس منه منحه ما يؤنسه ويُطمّئنه في غربته ، فطلب منه «تيمور» أن يُفصح عمّا يُريد ، ووعدّه بتحقيق مطلبه ، ولكنّ «ابن خلدون» لم يتعجّل بتوضيح مقصده ، بل إنّهُ قال له : «حال الغربة أنستني ما أريد ، وعساك - أيّدك الله - أن تعرف لي ما أريد»^(١) .

ويبدو أنّ «ابن خلدون» أراد أن يعرف ما يدور في خلد «تيمورلنك» بشأن رغبته في بقائه في مدينة «دمشق» فترة سيطرته عليها ، أو الإذن له بالعودة إلى مصر ، سيّما وأنّه افتتح كلامه بالإشارة إلى غربته . وقد أجابه «تيمور» بأن طلب إليه أن ينتقل من داخل مدينة «دمشق» إلى معسكره ، وأن يمكث عنده ، ووعدّه بأن يُكرمه ويفي له بما يُريد^(٢) .

وشكّره «ابن خلدون» على ذلك ، ودعا له - كما يقول - ثمّ عاد يلتمس منه الموافقة على مسألة أخرى ، وهي منح الأمان لبعض أتباع السلطان المملوكي «الناصر فرج» الذين ظلّوا في دمشق بعد انسحابه منها وعودته إلى مصر ، حيث قال لتيمور : «هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر ، من القراء والموقعين^(٣) و[أصحاب] الدواوين ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .

(٣) الموقعون: لقب يُطلق على مَنْ كانوا يقيّدون المكاتبات في ديوان الإنشاء السلطاني ، في عصر الأيوبيين والمماليك . مصطفى عبد الكريم الخطيب . معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، ص ٤١٤ .

والعمال ، صاروا إلى إياتك^(١) ، والملك لا يغفل مثل هؤلاء ، فسلطانكم كبير .
وعمالاتكم متسعة ، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة
غيركم ، فقال «تيمور» : «وما تريد لهم» ؟ ، قال «ابن خلدون» : «مكتوب أمان
يستنيمون إليه»^(٢) ، ويُعوّلون في أحوالهم عليه ، فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك .
فشكره «ابن خلدون» ، ودعا له مرة أخرى ، وخرج مع كاتب «تيمورلنك» حتى كتب له
كتاب الأمان ، وختمه «شاه ملك» - نائب «تيمور» - بخاتم السلطان ، وانصرف «ابن
خلدون» إلى منزله^(٣) .

وتكرّرت اللقاءات بين العلامة «ابن خلدون» و«تيمورلنك» ، فقُبيل رحيل هذا
الأخير عن بلاد الشام ، زاره «ابن خلدون» في معسكره ، وكان هذا اللقاء ودياً
كسابقه ، وقد تخلّله موقف غريب يبين طبيعة «تيمور» العجيبة ، وحبّه للهيمنة
والامتلاك ، فبينما كان «ابن خلدون» جالساً إلى جانبه ، إذ التفت إليه وسأله عن
بغلة كانت معه ، وطلب إليه أن يبيعها إيّاه ، فقال «ابن خلدون» : «أيّدك الله ، مثلي
لا يبيع من مثلك ، إنّما أنا أخدمك بها وبأمثالها» ، فقال «تيمور» : «إنّما أردتُ أن
أكافئك عنها بالإحسان» ، فأجابه «ابن خلدون» - مجاملاً - : «وهل بقي إحسان
وراء ما أحسنتَ به ، اصطنعتني ، وأحللتني من مجلسك محلّ خواصّك ، وقابلتني

(١) قال ابن منظور : «الإيالة : السياسة ، وآل عليهم أولاً وإيالاً وإيالاً : وَلِيّ وآل الملك رعيّته
يؤولها أولاً وإيالاً : ساسهم وأحسن سياستهم وولي عليهم» . لسان العرب - بيروت : دار
صادر ، ج ١١ ، ص ٣٦ . فيكون معنى قول «ابن خلدون» لتيمورلنك : «صاروا إلى إياتك» ، أي :
صاروا تحت ولايتك ورعايتك .

(٢) قال ابن منظور : «استنّام إلى الشيء : استأنس به ، واستنّام فلان إلى فلان ، إذا أنس به
واطمأنّ إليه وسكن ، فهو مستنّيم إليه» . المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٥٩٨ - ٥٩٩ .

(٣) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٧٨ .

من الكرامة والخير ما أرجو الله أن يُقابلك بمثله». وحمّلت بغلة «ابن خلدون» إلى «تيمورلنك» حينذاك ، ولم يرها بعد ذلك اللقاء^(١) .

وجاء «ابن خلدون» إلى مجلس «تيمورلنك» بُعيد هذا اللقاء بوقت وجيز ، يستأذنه في العودة إلى مصر ، وكان «تيمور» مدركاً رغبته في الرجوع ، فقد بادره بالسؤال عن السفر، وعاد «ابن خلدون» يُجامله من جديد ويتلطّف معه في القول ، متظاهراً أنّه لا يرغب سوى البقاء معه، وأنّه يريد السفر إلى مصر إذا كان ذلك لخدمته فحسب، فأذن له «تيمور» بالرحيل، قائلاً: «بل تُسافر إلى عيالك وأهلك»^(٢) . وظلّ «تيمورلنك» يُظهر التقدير والتبجيل للعلامة «ابن خلدون»، حتّى اللحظات الأخيرة من اللقاء الأخير بينهما ، فقد أوصى ابنه الذي كان ينوي السفر حينها إلى بعض النواحي في بلاد الشام أن يصحبه في الطريق ، فشكره «ابن خلدون» ، ودعا له - كما يقول - ولكنّه كان يرغب العودة عن طريق آخر ، وهو طريق مدينة «صَفَد»^(٣) ؛ لأنّها كانت أقرب إليه حينذاك ، فاستأذن «تيمور» في ذلك ، فأذن له ، فودّعه وانصرف مع جمّع من أصحابه ، وأخذ طريقه إلى مصر^(٤) .

ويبدو أنّ «ابن خلدون» كان مغتبطاً بعودته سالمًا من بلاد الشام ، وعدم تعرّضه لأيّ سوء من جانب «تيمورلنك» ، بالرغم من أنّ هذا الأخير كان قد أظهر له التبجيل والتقدير ، وأحسن معاملته في أثناء لقاءاته به ، ويظهر ذلك جلياً من قول «ابن خلدون» بعد رجوعه إلى مصر : «وحمّدتُ الله على الخلاص»^(٥) .

(١) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

(٣) صَفَد : مدينة في جبال عاملة المطّلة على حمص بالشام ، وهي من جبال لبنان . ياقوت .

معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

(٤) ابن خلدون . المصدر السابق ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٨٠ .

ويذكر «ابن خلدون» أنّه لما طال مقامه عند «تيمورلنك» ، وتأخّر في العودة إلى مصر ، أشيع بين الناس أنّه قد مات ، وكان السلطان المملوكي «الناصر فرج» قد عزم على إعادته لمنصب «قاضي قضاة المالكية» - وكان قد تولّاه من قبل أكثر من مرة - فترتب على ما أشيع من موته أن وُلّي رجل آخر مكانه في القضاء ، بيد أنّه ما أن عاد إلى مصر حتّى عُيّن في ذلك الموقع ، وذلك في أواخر شهر شعبان سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م^(١).

ولم تنقطع الصّلات بين «تيمورلنك» و«ابن خلدون» بعد عودة الأخير من بلاد الشام ، فقد بعث إليه «تيمور» ثمن البغلة التي اشتراها منه مع رسول كان قد وجّه إليه من مصر ، ولم يشأ «ابن خلدون» أن يقبض ثمن بغلته دون أن يستأذن السلطان المملوكي «الناصر فرج» ، وذلك لما كان يسود بينه وبين «تيمورلنك» من عداة في تلك الفترة ، حيث سار إليه ، وأخبره بالأمر ، فأذن له^(٢) .

أصداء اللقاءات بين «تيمورلنك» و «ابن خلدون» عند المؤرّخين :

لم تكن تلك اللقاءات التي جمعت بين قطبين متباينين في كلّ شيء ، رجل حرب وغزو وقتال ، ورجل علم وفكر وتاريخ ، لم تكن حدثاً عابراً في تاريخهما ، ولا موقفاً عارضاً في سيرة كلّ منهما ، بل كانت حدثاً مهماً أضحت له أصدأوه عند عدد من المؤرّخين .

ولعلّ أوّل هؤلاء المؤرّخين هو «ابن خلدون» نفسه، فقد شكّلت تلك اللقاءات حدثاً مهماً في حياته، ولا أدلّ على ذلك من كونه حرص على تدوين تفاصيلها في كتابه الذي تناول فيه سيرته الذاتية ، وهو كتاب «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» .

(١) ابن خلدون . التعريف ، ص ٢٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .

ومع أن «ابن خلدون» بالغ في بعض المواقف في تمجيد «تيمورلنك» والثناء عليه ، ولا سيما حينما كان يلتقي به ويُجالسه؛ إلا أن ذلك لم يحلّ بينه وبين إظهار مساوئه، وإبراز رأيه الحقيقي فيه من خلال ما دوّنه في كتابه «التعريف...»، فقد أشار إلى شدّته وعنفه في حروبه، وخاصةً هجومه على مدينة «دمشق»، وشراسته في التعامل مع أهلها^(١). كما وجّه بُعيد رجوعه إلى مصر كتاباً إلى «صاحب المغرب»^(٢)، يُنبئ فيه بما دار بينه وبين «تيمورلنك»، وقد ذكر فيه طرفاً من أخبار غزوات «تيمور» لبعض البلدان، وأشار إلى أنّه لم يجد مناصاً من لقائه؛ لأنّه سأل عنه، فحضر مجلسه، فأحسن استقباله، وأنّه التمس منه الأمان لأهل «دمشق»، وذكر أنّه أقام عنده خمسةً وثلاثين يوماً، يختلف إلى مجلسه خلالها مرّة بعد أخرى، ثمّ ودّعه فعاد إلى مصر^(٣). واستطرد «ابن خلدون» في كتابه إلى «صاحب المغرب»، فطَفِقَ يتحدث عن تاريخ المغول وممالكهم منذ أيام «جنكيز خان»، ثمّ عاد يتحدث عن «تيمورلنك»، وكيف ظهر على ساحة الأحداث، واتّسع نفوذه واستولى على بلاد شاسعة، وأشار إلى عدد جنوده الذي لا يمكن إحصاؤه، وقسوتهم في الحروب، وحبّهم للغارة والنهب والفتك بأهل المدن، «وابتلاّتهم بأنواع العذاب»^(٤).

(١) ابن خلدون . التعريف ، ص ٢٧٤ .

(٢) لم يُفصح ابن خلدون عن شخصيّة «صاحب المغرب» هذا ، وبالرجوع إلى بعض المصادر التاريخية يتّضح أنّ بلاد المغرب كانت في تلك الفترة (أوائل القرن التاسع الهجري) تحت حكم أبي سعيد عثمان بن أحمد المريني ، وهو من حكم دولة «بني مرين» في أيامها الأخيرة ، وقد تولّى الحكم في مدينة «فاس» في الفترة الواقعة بين عامي (٨٠٠ - ٨٢٣هـ) . انظر عنه . المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ٢ ، ص ٤١٣ - ٤١٧ . ابن حجر العسقلاني . ذيل الدرر الكامنة ، ص ٢١٤ . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ١٢٤ .

(٣) ابن خلدون . التعريف ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

وأورد «ابن خلدون» وصفاً مقتضباً لشخصية «تيمورلنك» ، فذكر أنه «من زعماء الملوك وفراعنتهم» ، وقال إن «الناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج، بما يعلم وبما لا يعلم، عُمره بين الستين والسبعين، ورُكِبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه»^(١).

وإذا كانت أصداء تلك اللقاءات عند «ابن خلدون» على هذا النحو، فإن أصداءها عند المؤرخين الذين جاءوا بعده تبدو مغايرة في بعض جوانبها، فنرى بعض المؤرخين يسوق عن تلك اللقاءات روايات لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولا نقف لها على أي ذكر أو إشارة عند «ابن خلدون» من قريب أو بعيد .. ومن هذه الروايات ما ذكره المؤرخ «ابن قاضي شهبه» من أن «تيمورلنك» لما التقى بابن خلدون، وأعجب به، طلب إليه أن يستعد للذهاب معه إلى بلاده، فقال له «ابن خلدون»: «لي في مصر من يحبني وأحبه، ولا بد لك من قصد مصر، إما في هذه المرة أو في غيرها، فأنا أذهب وأهين أمري، فأذهب في خدمتك»، فأذن له في العودة إلى مصر، وأن يستصحب معه من يشاء^(٢).

ومع أن «ابن قاضي شهبه» روى هذه الرواية عن شاهد عيان ثقة ، كان - كما يقول - قد حضر طرفاً من تلك اللقاءات التي جرت بين «ابن خلدون» و«تيمورلنك» ، وهو القاضي «شهاب الدين بن العز»^(٣)، إلا أنه يصعب الجزم بصحتها، سيما وأنا لا نقف على ما يُعزّزها عند «ابن خلدون» نفسه، حيث لم يذكر أن «تيمور» عرض عليه المسير معه - مع أن شيئاً من ذلك كان يعني بلا شك مزيداً من التقدير من جانب

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) تاريخ ابن قاضي شهبه ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .

«تيمورلنك» لابن خلدون - وإثماً أشار إلى أنه لما أدرك رغبته في الرجوع إلى مصر، أذن له في ذلك قائلاً : «بل تُسافر إلى عيالك وأهلك»^(١) .

ويُشير المستشرق «والتر فيشل»^(٢) إلى أن ما أورده «ابن قاضي شهبه» في روايته إثماً هو مجرد تفسير خاطئ لما ذكره «ابن خلدون» من أن «تيمورلنك» طلب إليه في أثناء هيمنته على مدينة «دمشق» أن ينتقل من مسكنه داخل المدينة إلى معسكره ، ليبقى معه فترة إقامته .

ومن الروايات الغربية التي ذكرها بعض المؤرخين عن اللقاءات بين «تيمورلنك» و«ابن خلدون» أيضاً ، ما ساقه «ابن عربشاه» في كتابه «عجائب المقدور» من أن «ابن خلدون» وقع أسيراً في يد «تيمورلنك» في أثناء احتلاله لمدينة «دمشق» ، ولما عزم على الرحيل عنها بجنوده أراد أن يصطحبه معه ، فاحتال عليه «ابن خلدون» بحيلة مكنته من فك أسره والنجاة بنفسه ، حيث قال له : إنه نادمٌ على ما مضى من عمره ؛ لكونه لم يره من قبل ، ولم يكن في خدمته ! وأنه يرغب في البقاء معه ، وسيُمضي ما بقي من عمره من أجله وفي صحبته ، وأنه يرى ذلك شرفاً له وعُلوّاً لمقامه^(٣) .

واستطرد «ابن خلدون» في كلامه لتيمورلنك - حسب رواية «ابن عربشاه» - فذكر أنه لا يأسف على شيء سيتركه بعد اصطحابه له إلا كتبه التي أفنى عمره فيها، والتي ذكر فيها تاريخ الدنيا منذ بدئها ، وسير ملوك الشرق والغرب ، وأنه يتمنى أن يُدوّن فيها أخباره - أي «تيمور» - ويجعله واسطة عقد أولئك الملوك ،

(١) التعريف بابن خلدون ، ص ٣٧٩ .

(٢) لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ص ١٦٨ .

(٣) عجائب المقدور ، ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

وقال له إنه تركها في مصر - حيث كان يقيم قبل قدومه إلى بلاد الشام - وإذا حصل عليها فسيظل في خدمته . ولن يفارق ركابه^(١) .

وأعجب «تيمورلنك» بكلام «ابن خلدون» ، ووافق في رغبته بإحضار كتبه ، سيما وأنه كان - كما يقول المؤرخون - ميلاً إلى سماع ما في كتب التواريخ والسير من أخبار ، وأذن له في العودة إلى مصر ليحضر أهله وأولاده وكتبه ، على ألا يلبث أكثر من مسافة الطريق ، فسار «ابن خلدون» ، ونجا بنفسه من قبضة «تيمور» ، ولم يعد بعد ذلك^(٢) .

هكذا تحدّث «ابن عربشاه» عن «ابن خلدون» ، وكيف احتال على «تيمورلنك» وتخلّص من أسرهِ . ومن الجلي أن روايته هذه لا تتفق مع ما ذكره «ابن خلدون» نفسه عن لقائه بتيمور ، وأنه لم يكن أسيراً لديه ، بل كان حراً طليقاً ، يختلف إلى معسكره ويعود إلى مقر إقامته بدمشق كيفما أراد ، وأن «تيمور» هو الذي أشار عليه بالعودة إلى أهله وعياله ، لما آنس منه رغبةً في ذلك ، كما ذكرنا من قبل .

ثم إن ما ذكره «ابن عربشاه» من أن «ابن خلدون» كان أسيراً عند «تيمورلنك» ، لا ينسجم مع ما أكّده الكثير من المؤرخين الذين أشاروا من قريب أو بعيد إلى تلك اللقاءات التي جرت بين الرجلين ، من أن «تيمور» كان يُقدّر «ابن خلدون» ويُبجلّه في جميع لقاءاته ، ومن هؤلاء المؤرخين : «ابن عربشاه» نفسه^(٣) ، و«المقريزي»^(٤) ، و«ابن قاضي شهبه»^(٥) ، و«ابن إياس»^(٦) ، وغيرهم .

(١) عجائب المقدور ، ص ٤٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٤) السلوك ، ج ٦ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٥) تاريخ ابن قاضي شهبه ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .

(٦) بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦١٨ .

ومما يُبرهن على أنّ ما ساقه «ابن عربشاه» من روايات ، يفتقر إلى الدقّة ، أنّه يخلط بين لقاء «تيمورلنك» بابن خلدون ، ولقاءاته بالعلماء الآخرين ، فيجعلهما لقاءً واحداً^(١) ، وهو ما لا يتّفق مع ما ذكره أكثر المؤرّخين ، وفي مقدّماتهم «ابن خلدون» نفسه ، و«المقريزي» ، و«ابن تغري بردي» ، وغيرهم .

ومع أنّ رواية «ابن عربشاه» السابقة تبدو بعيدة عن الواقع التاريخي ؛ إلّا أنّه كان لها صدى عند بعض المؤرّخين المتأخّرين ، فقد اقتبس «المقري» طرفاً منها في كتابه «نفح الطيب»^(٢) ، كما أشار إليها «حاجي خليفة» في كتابه «كشف الظنون» ، بل إنّ زاد فيها قوله : إنّ «ابن خلدون» رحل مع «تيمورلنك» إلى حاضرة بلاده «سمرقند» ، وبقي معه هناك إلى أن احتال عليه في الرجوع إلى مصر^(٣) .

ويُتّضح مدى مجانية «حاجي خليفة» للحقيقة التاريخية من قوله : إنّ «ابن خلدون» قال لتيمورلنك إنّ له تاريخاً كبيراً جمع فيه الوقائع بأسرها ، ويخشى أن يظفر به السلطان المملوكي «برقوق»^(٤) .. مع أنّ هذا السلطان كان قد مات قبل أن يغزو «تيمور» بلاد الشام ، وقبل أن يلتقي هذا الأخير بابن خلدون بعامين ، وذلك سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م . هذا فضلاً عن أنّه ذكر في مستهلّ روايته أنّ «ابن خلدون» كان قاضياً في مدينة «حلب» عند غزو «تيمور» بلاد الشام^(٥) ، مع أنّه كان يُقيم في مصر ، وفيها تولّى القضاء .

(١) عجائب المقدور ، ص ٢٥٤ .

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : تحقيق إحسان عبّاس - بيروت : دار صادر ،

١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - بيروت : دار العلوم الحديثة ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٨ .

ويبدو أنّ «حاجي خليفة» كان مؤمناً بصحّة هذه الرواية التي ساقها ، فهو يقول بعد ذكرها : ولعلّ ذلك الكتاب - الذي ذكره «ابن خلدون» لـ «تيمورلنك» - هو كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر ...»^(١) .

وإلى جانب الروايات السابقة نقف أيضاً على رواية ساقها المؤرّخ «ابن إياس» ، وذكر فيها أنّ «ابن خلدون» لما سار إلى «تيمورلنك» والتقى به ، أكرمه وأجلّه ، وأنزله عنده ، وصار يُحدّثه ، فأعجبه حديثه ، ثمّ «خيّره بين أن يمضي معه إلى بلاده ، أو يعود إلى مصر» ، فاختر الرجوع إلى مصر، فأذن له ، فعاد إليها^(٢) .

وإذا ما عدنا إلى ما ساقه أقرب المؤرّخين إلى فترة الأحداث بعد «ابن خلدون»، وأحد المعاصرين لها ، وهو المؤرّخ الكبير «تقيّ الدين المقرّبي» - المتوفّى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م - نجده لا يذكر شيئاً عن محاولة «تيمورلنك» إبقاء «ابن خلدون» في صحبته ، أو إغراءه بالمسير معه إلى حاضرة بلاده ، بل إنّهُ أورد رواية مقتضبة تتفق إلى حدّ بعيد مع ما ذكره «ابن خلدون» نفسه ، من أنّه لما ألحّ لـ «تيمورلنك» في الرجوع إلى مصر أذن له بذلك سريعاً ، يقول في هذا الصدد : «وكان قاضي القضاة وليّ الدين عبد الرحمن بن خلدون بداخل مدينة دمشق ... وسار إلى تيمورلنك فأكرمه وأجلّه ، وأنزله عنده ، ثمّ أذن له في المسير إلى مصر»^(٣) .

ويرى المستشرق «والتر فيشل» أنّ ما رواه «ابن خلدون» من تفاصيل عن لقائه بـ «تيمورلنك» ، يحطّ كثيراً من قيمة الروايات التي ذكرها من بعده من المؤرّخين عن ذلك اللقاء ، كابن عربشاه وغيره ، وأنّ هذه الروايات ليست إلّا صدى خافتا

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٨ .

(٢) بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦١٨ .

(٣) السلوك ، ج ٦ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

للحقائق التاريخية ، وخليطاً من الحقيقة والخيال ، وهي في أحسن الحالات تفسيرات لحادثة تاريخية^(١) .

أهداف «تيمورلنك» من لقاءاته بالعلماء :

يكشف العرض السابق للقاءات «تيمورلنك» ومجادلاته مع العلماء في بلاد الشام ، عن حقيقة مهمّة ، وهي أنّ المبادرة لعقد تلك اللقاءات كانت تأتي غالباً من جانب «تيمور» نفسه ، فهو الذي كان يطلب حضور العلماء إلى مجلسه ، وهو من كان يطرح الأسئلة عليهم ، ويدخل في مجادلات وحوارات معهم . وإذا كان «ابن خلدون» قد بادر بالمسير إلى معسكره خلال حصاره لمدينة «دمشق» ، فلا يخفى أنّه إنّما فعل ذلك لإدراكه أنّ «تيمور» كان حريصاً على لقائه ، حيث سأل عنه القاضي «ابن مفلح الحنبلي» خلال اجتماعه به مع علماء «دمشق» ، كما ذكرنا من قبل .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما الذي كان يهدف إليه «تيمورلنك» من وراء تلك اللقاءات ، وما هي دوافعه للدخول في مجادلات مع العلماء ؟ .

يمكن القول بدايةً : إنّ تلك اللقاءات والمجادلات كانت إحدى الهوايات التي اشتهر بها «تيمورلنك» ، والتي اعتاد على إظهارها ومزاولتها في مختلف البلدان التي هيمن عليها ، وقد أبان «تيمور» نفسه عن هذا الأمر في بعض المواقف ، فحينما طُفِقَ يسأل علماء «حلب» استهلّ سؤاله الأوّل لهم بقوله : إنّهُ سألهم عن أمر سأل عنه أهل «سمرقند» و«بخارى» و«هراة» وسائر البلاد التي استولى عليها^(٢) .

وقد ساقّت بعض المصادر التاريخية روايات تؤكّد أنّ «تيمورلنك» كان مُغرماً بالدخول في مجادلات مع العلماء ، ليس في بلاد الشام فحسب ، بل في بلدان

(١) لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ص ٦٦ .

(٢) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٢٩٩ .

أخرى أيضاً ، ففي مدينة «سمرقند» - حاضرة بلاد - كان «تيمور» يلتقي بالكثير من العلماء الذين عاشوا فيها أو استوطنوها فترة من الزمن ، وقد ذكرت المصادر من هؤلاء العلماء «سعد الدين التفتازاني»^(١) ، و«الشريف الجرجاني»^(٢) . وكانت تجري بين هذين العالمين محاورات ومناظرات بحضور «تيمورلنك»^(٣) .

ولم يكن «تيمور» يكتفي بمشاهدة تلك المحاورات فحسب ، بل كان يتدخل فيها أحياناً ، بل ويظهر تحيظه إلى أحد المتحاورين ، ففي لقاء مثير عُقد بين هذين العالمين في حدود سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م جرت مناظرات ومناقشات بحضور «تيمورلنك» ، وكان «تيمور» منحازاً إلى جانب «الشريف الجرجاني» ، فأمر بتقديمه على «التفتازاني» ، وقال : «لو فرضنا أنكما سيان في الفضل ، فله شرف النسب» ، وكان لهذا الموقف انعكاساته القاسية والمؤثرة على العلامة «سعد الدين التفتازاني» ، فقد اغتم كثيراً وحزن حزناً شديداً ، ومالبث أن مات في العام نفسه^(٤) (٧٩١هـ / ١٣٨٩م) .

(١) هو : سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني . من مشاهير علماء القرن الثامن الهجري . كان إماماً علامة في النحو والصرف والبيان والمنطق ، وله أيضاً باع في العلوم الشرعية . توفي سنة ٧٩١هـ . انظر ترجمته في : السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت : المكتبة العصرية ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٣١٩ - ٣٢٢ .

(٢) هو : أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني . من كبار علماء المشرق في زمنه ، يُعرف بلقب «السيد الشريف» ، مفسر فيلسوف عالم بالعربية . تولى التدريس في مدينة «شيراز» سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ، فلما سيطر عليها «تيمورلنك» سنة ٧٨٩هـ بعث به إلى مدينة «سمرقند» للتدريس فيها ، فأقام بها إلى أن توفي «تيمور» سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م ، فعاد إلى «شيراز» وعاش فيها حتى وفاته سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م . انظر ترجمته في . السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ - ٣٣٠ .

(٣) السخاوي . المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ . ابن العماد الحنبلي . المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢١ .

(٤) ابن العماد الحنبلي . المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢١ .

وربّما توحى بعض المواقف بأنّ «تيمورلنك» كان يحرص على لقاء العلماء ليحتفي بهم ، ومن ثمّ يعلو صيته عندهم ويرتفع قدره في نفوسهم ، سيّما وأنّه كان يُظهر في بعض المواقف محبّته لهم ، ويتحدّث عن كثرة اختلاطه بهم ، وحرصه على التقرب إليهم ومجالستهم ، وقد بدا ذلك واضحاً من قوله لعلماء «حلب» : « .. فإنّي خالطت العلماء ، ولي بهم اختصاصٌ وألفة»^(١) . وكان من عاداته أن يصطحب معه في غزواته حاشية كبيرة، تضمّ بين أفرادها الكثير من العلماء والأدباء^(٢) .

ويؤكّد «ابن عربشاه» أنّ للعلماء مكانة عالية عند «تيمورلنك» ، فيذكر أنّه كان «محبّاً للعلماء، مقرباً للسادات والشرفاء، يُعزّز العلماء والفضلاء إعزازاً تامّاً، ويُقدّمهم على كلّ أحد تقدّماً عامّاً ، ويُنزل كلّاً منهم منزلته ، ويعرف له إكرامه وحُرّمته»^(٣) . والواقع أنّ «تيمورلنك» كان يُقدّر بعض العلماء ، ويُنزلهم منزلتهم التي يستحقّونها، ولا أدلّ على ذلك ممّا أظهره من تقدير وتبجيل للعلامة «ابن خلدون» ، حتّى إنّّه أمر حين أحضر الطعام بين يديه أن يُعرض عليه أولاً ، فلمّا تناول «ابن خلدون» بعضاً منه سرّ «تيمور» بذلك ، ولمّا دخل إلى مجلسه في اللقاء الثاني معه مثّل قائماً احتراماً له وتقديراً ، كما أظهر بعض التقدير للإمام «ابن الشحنة الحلبي» ، الذي التقى به في مدينة «حلب» ، كما ذكرنا في صفحة سابقة .

ولم يكن «ابن خلدون» و«ابن الشحنة» هما فقط من نال هذا التقدير من بين العلماء ، فقد ذكرت المصادر التاريخية أسماء بعض مشاهير العلماء الذين التقى بهم «تيمورلنك» في بعض البلدان الإسلامية ، وأظهر لهم الكثير من الاحترام والإجلال ،

(١) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٢٩٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٦ ، ص ١٦٠ .

(٣) عجائب المقدور ، ص ٤٥٤ .

ومن هؤلاء العلماء الإمام «الفيروزآبادي»^(١)، حيث التقى به في مدينة «شيراز» - كما يقول «السخاوي» - و«عظّمه وأكرمه ووصله بنحو مئة ألف درهم»^(٢). كما التقى «تيمورلنك» بالإمام العلامة «شمس الدين بن الجزري»^(٣) في أواخر سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م ، فأحسن استقباله وقدره ، وولاه القضاء^(٤) .

ومع هذا كلّه يصعب القول بأنّ اهتمام «تيمورلنك» بلقاء العلماء يُعزى بالدرجة الأولى إلى رغبته في تقديرهم أو تكريمهم والاحتراف بهم ، أو أنّ هذا الهدف كان يمثّل الهاجس الأوحد عنده ، ليس فقط؛ لأنّ شخصيّته وسيرته لا تتبى عن ذلك ، بل لأنّ تلك السياسة التي اتّبعتها مع بعضهم لم تكن ديدنه مع سائر العلماء الذين التقى بهم ، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنّه أساء إلى الكثير منهم ، ومن ذلك موقفه من «ابن مفلح الحنبلي» ، ومَن كان معه من علماء «دمشق» حينما ساروا للقاءه ، حيث أظهر لهم في البداية لين الجانب ، ثمّ ما لبث أن قلب لهم ظهر المجنّ ، وكان لتلك اللقاءات المأساوية التي جرت بينه وبينهم انعكاساتها القاسية على

(١) هو : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي . من أئمة اللغة والأدب ، نشأ في «شيراز» ، ثمّ طفق يتنقّل بين البلدان ، حيث رحل إلى العراق والشام ومصر والحجاز وبلاد الروم والهند ، واستقرّ به المقام في اليمن . حيث تولّى القضاء فيها ، وتوفّي سنة ٨١٧هـ . انظر ترجمته في: المقرئزي : درر العقود الفريدة ، ج ٣ ، ص ١٧٣ - ١٧٧ ؛ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٧٩ - ٨٦ .

(٢) السخاوي : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٨٣ .

(٣) هو : شمس الدين محمد بن محمد بن محمد بن علي بن الجزري الشافعي . نشأ في «دمشق» ، ورحل في طلب العلم إلى مكّة والمدينة والقاهرة وغيرها ، ونبغ في علم القراءات . وتصدّر للإفتاء والتدريس . توفّي سنة ٨٢٣هـ . انظر ترجمته في : السخاوي . الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ٢٥٥ - ٢٦٠ . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٤) عن اللقاء بين ابن الجزري و«تيمورلنك» ، انظر : السخاوي . المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٥٧ . ابن العماد الحنبلي . المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ .

بعضهم، وخاصة «ابن مفلح الحنبلي»، فقد حدث له كما يقول بعض المؤرخين ضعف بسبب ما قاساه من التعب، وما ناله من هول تلك المواقف، وما لبث أن توفي في شعبان سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م^(١).

كما وقع في أسر «تيمور» الكثير من العلماء، وتعرضوا للأذى والتكيل على أيدي جنوده، فحينما خرج من مدينة «دمشق» اقتاد معه ثلّة من علمائها، ومنهم قاضي القضاة «محيى الدين بن العزّ الحنفي» بالرغم من أنّه كان قد ولّاه مناصب عدّة في «دمشق» في مستهلّ احتلاله لها وابنه قاضي القضاة «شهاب الدين أبو العباس»، وقد ظلّ في أسره حتّى بلغا مدينة «تبريز»، فمكثا فيها فترة من الزمن في حالة سيّئة، ثمّ تمكّنا من العودة إلى بلاد الشام^(٢).

وممّن وقع في أسر «تيمور» من العلماء، قاضي القضاة «شمس الدين النابلسي الحنبلي»، وقاضي القضاة «صدر الدين المناوي الشافعي»، الذي أسره بعض جنود «تيمورلنك» وأحضره في أثناء لقائه ببعض علماء «دمشق» كما ذكرنا من قبل وضيق عليه وأهين، وما لبث أن استشهد في أثناء أسره غريقاً في أحد الأنهار^(٣). وأسر أيضاً القاضي «شهاب الدين أحمد بن الشهيد»، وظلّ في الأسر حتّى بلغ مدينة «سمرقند» - حاضرة «تيمورلنك» - وبقي فيها فترة «وقاسى بها من صروف الزمن أنواعاً، من غربة وفقر ومحن، ثمّ رجع إلى دمشق، وتوفي بها»^(٤).

(١) ابن قاضي شعبة. تاريخه، ج ٤، ص ١٩٦ - ١٩٧. النعيمي. في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٣٧.

(٢) ابن عربشاه. عجائب المقدور، ص ٢٩١ - ٢٩٢. السخاوي. الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٢٠.

النعيمي. المدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٤٨٤.

(٣) ابن قاضي شعبة. تاريخه، ج ٤، ص ١٨٣، ٢٢٤. ابن عربشاه. المصدر السابق، ص ٢٩٢.

(٤) ابن عربشاه. المصدر السابق، ص ٢٩٢.

كما أُسر على يد «تيمورلنك» من العلماء قاضي القضاة «تقي الدين عبد الله بن يوسف الحنفي الدمشقي»^(١) ، ومات في الأسر في آخر سنة ٨٠٣هـ^(٢) .

وقد شاع بين بعض العلماء المعاصرين لتيمورلنك - قبل غزوه لبلاد الشام - أنه كان يسعى للإساءة لأهل العلم ، ويتعنّت في الأسئلة التي يُلقِيها عليهم : ليكون ذلك سبيلاً إلى إلحاق الأذى بهم ، بل وربما التكيل ببعضهم ، وقد بدا ذلك جلياً من خلال ما ذكره العلامة «ابن الشحنة» ، حينما قال : «وكان يبلغنا عنه أنه يتعنّت في الأسئلة على العلماء ، ويجعل ذلك سبباً في قتلهم أو تعذيبهم»^(٣) .

ويبدو أنّ «تيمورلنك» كان يستغلّ بعض اللقاءات التي جرت بينه وبين العلماء للتمويه والمراوغة ، ولا سيّما في بعض البلدان التي قام بغزوها ، ومنها بلاد الشام ، وكان يدّعي أنّه لم يكن يهدف من غزواته لبلدانهم إلحاق الأذى بهم أو بغيرهم من الناس ، ونرى ذلك جلياً في اللقاء الذي جمعه ببعض علماء «دمشق» ، حيث أخذ يتلفّظ في القول ، وطَفِقَ يتظاهر بحبّه للرسول ﷺ وأصحابه ، وتعظيمه لهم ، عندما قال : «هذه بلدة الأنبياء والصحابة ، وقد أعتقتها لرسول الله ﷺ ، صدقةً عنّي وعن أولادي» ، مدّعيّاً أنّه لن يهاجم البلدة أو يُسيء إلى أهلها ، ثمّ مالِث أن اجتاحتها ، وعاث فيها نهباً وتخريباً .

(١) هو : تقي الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الحسين الحنفي الدمشقي . المعروف بـ «ابن الكفري» . من علماء الشام وقضائهم . تولّى التدريس والخطابة والقضاء في دمشق . وتوفي في شهر ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ . انظر ترجمته في : (ابن حجر العسقلاني . إنباء الغمر . ج٤ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ . ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص ٢٧٣ . السخاوي . المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٧٣ .

(٢) ابن تغري بردي . المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢٧٣ .

(٣) روض المناظر ، ص ٢٩٩ .

ومن خلال استقراء ما ورد في المصادر التاريخية من روايات عن لقاءات «تيمورلنك» بالعلماء، ومجاداته معهم، والربط بينها وبين ما تتّصف به شخصيته الغربية والمثيرة للجدل، يمكن القول أيضاً إنّ «تيمور» كان يحرص على مقابلة العلماء في الكثير من المواقف؛ ليتظاهر أمامهم بأنه زعيم مسلم، رغمًا من أنّه هاجم كثيراً من البلدان في العالم الإسلامي، وألحق بها الكثير من الخراب والدمار. ومع أنّه كان جباراً عنيداً، لا يخشى الله في أثناء حروبه وغزواته، بل يُطلق العنان لجيوشه الجرّارة؛ لتدمير المدن والقرى، والقضاء على سكّانها ونهب خيراتها؛ إلّا أنّه كان يزعم مع ذلك أنّه مهتمٌّ بتعاليم الإسلام، ولذا كان يخوض مع العلماء في بعض المسائل العلمية ذات الصبغة الشرعية، ويدّعي أنّ له فيها باعاً، كما كان يحرص في بعض المواقف على التظاهر بالالتزام بأركان الإسلام وفروضه وتعاليمه، وخاصةً حينما يكون في مجلسه بعض العلماء، ومن ذلك مثلاً أدائه للصلاة مع بعض علماء «حلب» في أثناء لقائه بهم^(١) - كما سبق ذكره.

وكان «تيمور» يتظاهر أيضاً بالأمانة والخوف من الله تعالى، فبعد أن اشترى بغلةً من «ابن خلدون» في أثناء لقائه به في بلاد الشام، وعاد «ابن خلدون» إلى مصر، بعث إليه «تيمور» ثمن بغلته - كما ذكرنا - بل إنّهُ ألحّ على رسولٍ كان قد وجّههُ السلطان المملوكي لعقد صلح معه، ألحّ عليه بحمل المال إليه، حرصاً منه كما يقول على «خلاص ذمّته»^(٢). ويذكر المؤرّخ «ابن إياس» أنّ «تيمورلنك» كان كثيراً ما يذكر الله تعالى في مجلسه، ويستغفر من ذنوبه، وكانت السبحة لا تُفارق يده. ولكنّ ذلك كلّهُ حسب رأي «ابن إياس» «رياء وتصنّع، ومكر وشيطنة وخديعة»^(٣).

(١) انظر: ابن الشحنة. روض المناظر، ص ٣٠١.

(٢) ابن خلدون. التعريف، ص ٣٨٠.

(٣) بدائع الزهور، ج ١، القسم الثاني، ص ٦١١.

وكان «تيمور» أيضاً يزعم في بعض المواقف أنه يحمل تقديراً كبيراً لأصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أنه لما بلغ بجيوشه مدينة «حمص» في بلاد الشام ، لم يتعرض لأهلها بسوء؛ لوجود قبر «خالد ابن الوليد» رضي الله عنه فيها^(١) .. بينما اجتاحت مدينتي «حلب» و«دمشق» مع أن فيهما الكثير من قبور الصحابة ! .

ومن العجيب أن «تيمورلنك» كان يجرو في أثناء لقاءاته ومجادلاته مع العلماء على الخوض في مختلف مسائل العلم ، فهو يخوض في التاريخ : فيسأل عن «علي» و«معاوية» ، و«يزيد» و«الحسين» ، وفي الجغرافيا؛ فيسأل عن مواضع بعض المدن ، مثل: «طنجة» و«سبتة» و«فاس» و«سجلماسة» ، وفي الأنساب؛ فيستفسر عن نسب «بختنصر» ، وفي الأدب؛ فيسأل عن قصيدة «البردة» وعن قائلها .

ولم يكن خوضه في هذه المسائل مقتصرأ على السؤال عنها فحسب ، بل كان يبدى رأيه في بعضها أحياناً ، ويتعصب لما يراه ، ولذا يمكن القول أيضاً بأن «تيمور» كان يسعى من وراء لقاءاته ببعض العلماء إلى إبراز ماكان يظنه في نفسه من معرفة ودراية ببعض العلوم ، وقد أبان عن ذلك حينما زعم - عند دخوله في مجادلات مع بعض العلماء - أن له في العلم باعاً ، وأن له فيه طلباً قديماً^(٢) ، مع أنه كان رجلاً أمياً ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة^(٣) .

وربما توحى بعض المواقف أن «تيمورلنك» كانت لديه نزعة تشييع ، ولا سيما

(١) المقرئزي . درر العقود الفريدة ، ج ١ ، ص ٥٢٨ . ابن تغري بردي . المنهل الصافي ، ج ٤ ، ص ١٢١ . الصيرفي . نزهة النفوس والأبدان ، ج ٢ ، ص ١٠٤ . ابن إياس . بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦٠٢ .

(٢) ابن الشحنة . روض المناظر ، ص ٢٩٩ .

(٣) ابن عربشاه . عجائب المقدور ، ص ٤٥٥ .

حينما يحاول إساءة القول في «معاوية» رضي الله عنه ، بل ويلجّ على بعض العلماء بأن يُتابعوه في رأيه ، وهو ما لم يوافقوه عليه ، وكذلك حينما أظهر سخطه على علماء «حلب»؛ لأنهم تبعُ لأهل «دمشق»، الذين كان أسلافهم - وفقاً لرأيه - «يزيديين» ، تسبّبوا في مقتل «الحسين بن علي» ! ، ومن ثمّ قد يدعو ذلك إلى الظنّ بأنّ مجادلاته مع بعض العلماء ، ولا سيّما في بلاد الشام كانت بدافع من تلك النزعة.. يبيد أنّ بعض المواقف الأخرى لا تُعزّز هذا الظنّ ، بل إنّها تدلّ فيما يبدو على أنّ شيئاً من ذلك لم يكن في ذهن «تيمور» ، ومن تلك المواقف مثلاً ما سبقت الإشارة إليه في أكثر من موضع من هذه الدراسة من أنّ «تيمورلنك» كان يبيد تقديراً ملموساً لعدد من أعلام السنّة في عصره سواءً في بلاد الشام أو في غيرها من البلاد التي غزاها ، ومنهم «ابن خلدون» ، و«ابن الشحنة» ، و«الفيروزآبادي» ، و«ابن الجزري» ، وغيرهم ، هذا بالإضافة إلى أنّ العلامة «ابن خلدون» الذي جالس «تيمور» أكثر من مرّة ، وحاوره وعرفه عن كثب ، نفى في كتابه الذي بعثه إلى حاكم بلاد المغرب ، ما يظنّه بعض الناس من أنّه كان يتّخذ من «الرّفص» مذهباً له^(١) .

الخاتمة :

وبعد : فقد كشفت هذه الدراسة عن نتائج عدة ، أهمّها ما يلي :

- تبيّن لنا في هذه الدراسة أنّ معظم لقاءات «تيمورلنك» ومجادلاته مع العلماء في بلاد الشام ، قد جرت بناءً على طلب من «تيمور» نفسه ، وبمبادرة منه ، فهو من كان يطلب حضورهم إلى مجلسه ، وهو الذي يُبادر بطرح الأسئلة عليهم ، ويدخل في مجادلات معهم .

(١) ابن خلدون . التعريف ، ص ٣٨٢ .

- كشفت هذه الدراسة عن أن هناك تبايناً كبيراً في مواقف «تيمورلنك» من العلماء. فقد كان يُظهر التقدير والتبجيل لثمة منهم .. بينما كان يتعامل مع شريحة أخرى منهم بصورة مغايرة تماماً ، تنبئ عن حقيقته التي طالما اتّصف بها ، والمتّسمة بالعنف والقسوة والشراسة .

- لم يكن «تيمورلنك» في أثناء لقاءاته بالعلماء يكتفي بسؤالهم والسماع منهم فحسب ، بل كان يدلي بدلوه في بعض المسائل العلمية أحياناً ، بالرغم من أنه كان رجلاً أميّاً ، لا يفقه في العلم شيئاً ، وكان يدّعي أن له في العلم باعاً ، وأنه كثيراً ما يُخالط العلماء ويُجالسهم ، وله بهم اختصاص وألفة .

- تبين لنا من خلال هذا البحث أن «تيمورلنك» كان مولعاً بسؤال العلماء عن قضايا ومواقف تاريخية تعود لأزمنة مبكرة ، كرايهم في «علي» و«معاوية» و«يزيد» و«الحسين» ، ومن الذي كان منهم على الحق ، ونحو ذلك .. وقد طرح هذه الأسئلة على علماء «حلب» أكثر من مرة ، كما طرحها على علماء «دمشق» أيضاً .

- اتّضح لنا في هذه الدراسة أن أقسى اللقاءات التي جرت بين «تيمورلنك» والعلماء في بلاد الشام ، هي تلك التي عقدها «تيمور» مع علماء «دمشق» ، حيث أغلظ لهم في القول ، وأساء معهم في التعامل ، بالرغم مما ادّعاه في بداية لقائه بهم من حسن النوايا تجاههم وتجاه مدينتهم .

- لم يكن «تيمورلنك» يُخفي إعجابه في بعض المواقف من بعض العلماء الذين التقى بهم في بلاد الشام ، ومن ذلك إعجابه بـ «ابن الشحنة الحلبي» الذي التقى به في مدينة «حلب» ، و«ابن خلدون» الذي التقاه في مدينة «دمشق» .

- كان للقاءات التي جمعت بين «تيمورلنك» والعلامة «ابن خلدون» أصداء ملموسة عند عدد من المؤرخين ، وهو ما لا نقف على نظير له في لقاءات «تيمور» بالعلماء

الآخرين ، ولعلّ ذلك يُعزى إلى ما كان يحظى به «ابن خلدون» من مكانة علمية عالية، ولما يتمتع به من شهرة واسعة ، ليس في عصره فقط، بل في سائر العصور .

- اتّسمت أصداء اللقاءات التي جرت بين «تيمورلنك» و«ابن خلدون» عند بعض المؤرّخين بالمبالغة ، بل والبُعد عن الحقائق التاريخية أحياناً ، حيث ساق أولئك المؤرّخون روايات غريبة عن تلك اللقاءات ، لا تتّفق وما ذكره «ابن خلدون» نفسه من معلومات .

- أوضحت هذه الدراسة أنّ «تيمورلنك» لم تكن له دوافع معيّنة أو أهداف محدّدة من وراء لقاءاته بالعلماء ومجادلاته معهم ، وأنّ تلك اللقاءات كانت واحدة من الهوايات التي عُرِفَت عنه، وكان يزاولها في الكثير من البلدان التي استولى عليها، هذا بالإضافة إلى كونه يسعى - فيما يبدو - إلى الظهور أمام العلماء وكأنّه على جانب من العلم ، وأنّه فضلاً عن نبوغه في لغة الحرب والقتال ، فإنّه يفهم - كما يزعم - لغة العلم والعلماء .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد (ت في حدود ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م). بدائع الزهور في وقائع الدهور: تحقيق محمد مصطفى - ط ٢ - القاهرة ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢ م .
- البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) . صحيح البخاري - بيروت : عالم الكتب .
- الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) . سنن الترمذي - بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م). المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي : تحقيق د . محمد محمد أمين - القاهرة ، ١٩٨٤ م . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢ م .
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - بيروت: دار العلوم الحديثة .
- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) . إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ - ط ٢ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م . ذيل الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة : تحقيق أحمد فريد المزيدي - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م .
- الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) . معجم البلدان - بيروت: دار صادر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) . التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً : تحقيق محمد بن تاويت الطنجي - القاهرة ، ١٣٧٠هـ /

- ١٩٥١م . العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر -٠ بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١م .
- السبكي ، تاج الدين عبد الوهّاب بن علي (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) . معيد النعم ومبيد النقم -٠ ط ١ -٠ بيروت : مؤسّسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع -٠ ط ١ -٠ بيروت : دار الجيل ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم -٠ بيروت: المكتبة العصرية . تاريخ الخلفاء -٠ بيروت : دار الفكر .
- الشامي ، نظام الدين (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) . ظفرنامه -٠ بيروت ، ١٩٣٧م .
- ابن الشحنة، أبو الوليد محمد بن محمد (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) . روض المناظر في علم الأوائل والأواخر ؛ تحقيق سيّد محمد مهنيّ -٠ ط ١ -٠ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) . الوافي بالوفيات ؛ تحقيق أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى -٠ ط ١ -٠ بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
- الصيرفي ، علي بن داود (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) . نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ؛ تحقيق د. حسن حبشي -٠ القاهرة ، ١٩٧١م .
- ابن عربشاه ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) . عجائب المقدور في نوائب تيمور ؛ تحقيق أحمد فايز الحمصي -٠ ط ١ -٠ بيروت : مؤسّسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحيّ بن أحمد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) . شذرات الذهب في أخبار من ذهب -٠ بيروت : دار الآفاق الجديدة .

- الغياثي ، شهاب الدين بن فتح الله (القرن التاسع الهجري) . التاريخ الغياثي تحقيق طارق نافع الحمداني - بغداد ، ١٩٧٥ م .
- ابن الفرات . ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) . تاريخ ابن الفرات : تحقيق د . قسطنطين زريق - بيروت ، ١٩٣٦ م .
- ابن قاضي شهبه ، تقي الدين أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م) . تاريخ ابن قاضي شهبه : تحقيق عدنان درويش - دمشق : المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٩٧ م .
- الكتبي ، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) . فوات الوفيات : تحقيق إحسان عباس - بيروت : دار صادر .
- ابن کنان ، محمد بن عيسى بن محمود (ت ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م) . حقائق الياسمين في ذکر قوانین الخلفاء والسلاطين : تحقيق عباس صباغ - بيروت : دار النفائس ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١ م .
- المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) . درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: تحقيق د . محمود الجليلي - ط ١ - بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م . السلوك لمعرفة دول الملوك - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .
- المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) . نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: تحقيق د . إحسان عباس - بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مکرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) . لسان العرب - بيروت : دار صادر .
- النعيمي ، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م) . الدارس في تاريخ المدارس - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .

ثانياً : المراجع :

- إقبال ، عباس . تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية : ترجمه من الفارسية إلى العربية : د . محمد علاء الدين منصور ٠- القاهرة : دار الثقافة ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- الباشا ، حسن . الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ٠- القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ م .
- الخطيب ، مصطفى عبد الكريم . معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ٠- ط١ ٠- بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
- دائرة المعارف الإسلامية: ترجمها إلى العربية أحمد الشنتاوي ، وإبراهيم زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس ٠- بيروت : دار المعرفة.
- صفا، محمد أسد الله . تيمورلنك ٠- ط١ ٠- بيروت: دار النفائس، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
- العلبي ، أكرم حسن . تيمورلنك وحكايته مع دمشق ٠- ط٤ ٠- دمشق : دار المأمون للتراث ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- فيشل ، وآلتر . ج . لقاء ابن خلدون لتيمورلنك . (وهو ترجمة للنص الذي أورده «ابن خلدون» عن لقاءه بتيمورلنك في كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» مع تعليقات مطوّلة) : ترجمة محمد توفيق ٠- بيروت : دار مكتبة الحياة.
- كرد علي ، محمد بن عبد الرزاق (ت ١٢٧١ هـ / ١٩٥٣ م) . خطط الشام ٠- ط٢ ٠- دمشق : مكتبة النوري، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- محمد فريد بك . تاريخ الدولة العلية العثمانية : تحقيق د . إحسان حقّي ٠- ط٢ ٠- بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

Rene Grousset :

The Empire of The Steppes , New Jersey , 1970 ..